007 Drfiras007

يــــــقـــــدم



قوس قزح

أحمر .. برتقالي .. أصفر .. أخضر .. أزرق .. نيلي .. بنفسجي ......

إنه قوس قزح ..

لا حقائق ولا مسلمات .. إنما هو الضوء يمارس خدعته السرمدية في شبكيات عيوننا ..

الأبيض لا وجود له بل هو سبعة الألوان و قد جاءت معا ... الأسود لا وجود له إنما هو سبعة الألوان و قد غابت معا ...

تدنو من الشيء أو الشخص أو الحقيقة ، فتدرك أنه ليس واحدا .. و أن التجانس المزعوم وهم .. هناك حقيقتان .. ثلاث حقائق .. ربما سبع ... ربما لا حقيقة على الإطلاق ..!

أحمر .. برتقالي .. أصفر .. أخضر .. أزرق .. نيلي .. بنفسجي ......

إنه قوس قزح ...

الهواء مبتل قشيب اغتسل بالأمطار لتوه ، و عند طرف قوس قزح تجد قدر الذهب الذي دفنه القزم .. كذا قالوا في الأساطير .. تجد السعادة .. تجد الحقيقة ..

بنفسجي .. نيلي .. أزرق .. أخضر .. أصفر .. برتقالي .. أحمر ..

اليوم نحكي كيف أن قوس القزح قد يكون مخيفا .. كيف تصير الألوان مرعبة أو – على أقل تقدير – لست كما وجدت في خيالات طفولتنا ..

أحمر .. برتقالي .. أصفر .. أخضر .. أزرق .. نيلي .. بنفسجي ......

قوس قزح ..

و سبع قصص تحكي عن الألوان ..

سبع حكايات عن قوس قزح .....

كانت الفكرة و المقدمة للدكتور (أحمد خالد توفيق) .. و بعد هذا اختار أحد المؤلفين أن يكتب عن ثلاثة ألوان و اختار الآخر أربعة . فمن اختار ماذا ؟..

سنترك السؤال معلقا .. فهل تجيب عنه أنت ؟ ..

***

د. أحمد خالد توفيق – د. تامر إبراهيم

أحمر ...

يقول السيد (منير) و هو يلفظ الدخان من غليونه :
(اللون الأحمر يا بني هو أهم ألوان الطيف و أكثرها عمقا و تأثيرا .. إنه لون الدم .. لون الحب .. لون الزهور .. لون الفجر و الغروب .. و الأهم من هذا كله إنه لونهم !!)

****

و كان المقطم هو المكان الأمثل ، لما انتوينا فعله ..

دائما ما تصلح فيلات المقطم في تنفيذ أي مخطط .. و هذه قاعدة مطلقة ..

لا بد أن يستنسخوا البشر و يصنعوا المخدرات و يأكلوا الموتى و يشربوا الدماء في هذه الفيلات ..
على كل حال أنا ذاهب لما هو أسوأ ...!!!

السيد (منير) هو من أيقظني ليخبرني أنها الليلة الموعودة ، فلم أكد أصدق نفسي و أنا أقفز في سيارتي أنطلق بها إلى هنا .. إنها الليلة الموعودة ، و لكم طال الانتظار ..

أوقفت سيارتي أمام تلك الفيلا التي تبدو مهجورة لمن يراها من الخارج ، و جلست لحظة لأملأ جسدي بدفء السيارة ، قبل أن أخرج إلى حيث تضربني الرياح بلا هوادة ، بأسهم من الثلج ..

و من حقيبة السيارة أخرجت تلك الحقيبة الجلدية الضخمة ، أحملها بنوع من المشقة متجها إلى مدخل الفيلا ..
إنني أتذكر ... ثلاث طرقات ثم طرقتين متباعدتين ، ثم هأنذا أنتظر حتى يفتح الباب ليستقبلني السيد (منير) بدخان غليونه ..

أنا لم أر هذا الرجل إلا و هو يدخن الغليون ، و إنني لأتساءل عن الكيفية التي يبقى معها غليونه مشتعلا طيلة الوقت ... أحيانا أشعر أنه ينفث لهبا من فمه في هذا الغليون !

كان عمليا كدأبي به ، فاستقبلني قائلا :
- ***" هل أحضرت المطلوب ؟!"***

دققت على حقيبتي الجلدية ، و أنا أومئ برأسي إيجابا ، فأفسح لي الطريق ، لأعود إلى دفء الأماكن المغلقة ... و في الداخل كان الباقون في انتظاري ...

السيد (علاء) بقامته الضئيلة و جسده المكتنز ، و السيد (رضا) بنظراته العصبية المتوترة ، و السيد (فهمي) بملامحه الأرستقراطية الجامدة ..

حيوني بهز الرأس ، فاتخذت مكان جوارهم ، حتى أتى السيد (منير) و هو يمرر أصابعه في خصلات شعره الأشيب ، ليقول بذات العملية و الغليون مدلى من فمه :
- ***"سنبدأ حالا ... لذا على من يريد التراجع أن يعلمنا من الآن ..."***

لم يتلق ردا ، فنفث المزيد من الدخان و اتجه إلى باب أحد الغرف ، قائلا بحيادية :
- ***"اتبعوني رجاءً ..."***

و هكذا تبعناه صاغرين إلى الغرفة التي لم نكد نراها ، حتى بدت الدهشة في ملامحنا ، و إن لم يجرؤ أحدنا على النطق بحرف ..

على الأرض رسمت النجمة الخماسية الشهيرة ، و قد استقرت خمسة مقاعد عند أطراف النجمة ، بينما استقر ذلك الشيء عند مركز الدائرة ، نشعر أنه يجثم على صدورنا بلا رحمة ...

أقول هذا الشيء لأننا لم نعرف له اسما و إن كنا قد اتفقنا فيما بيننا على تسميته (لوح الحقيقة) ...

كان يبدو كلوح حجري مصمت ، استقرت في طرفه بلورة زجاجية شديدة الشفافية ، و على اللوح نفسه حفر فراغ لا يحتاج المرء لأن يكون خبيرا ، ليعرف أنه مصمم بحيث يستلقى جسد في هذا التجويف ... جسد آدمي ....!

استقر (فهمي) و (رضا) و (علاء) في مقاعدهم و ملامحهم تنضح بالانفعال ، بينما ظللت أنا واقفا حاملا حقيبتي الضخمة ، منتظرا إشارة السيد (منير) الذي أومأ ي برأسه موافقا ، فوضعت الحقيبة على الأرض بحرص ، و نزلت على ركبتي لأفتحها ...

و استقبلني ثلاث شهقات من السادة الجالسين ، و أنا أخرج من الحقيبة جسد ذلك الطفل ، الذي بدا وضاحا من شحوب جسده ، و تلك الدماء الجافة على رأسه أنه مات منذ زمن ، و أن جثته كانت محفوظة لفترة طويلة ، مما حال دون أن تبدأ في التحلل ...

وحده السيد (منير) الذي ظلت ملامحه جامدة و أنا أسجي الجسد الضئيل ي التجويف ، قبل أن أتخذ مقعدي عند أحد أطراف النجمة الخماسية ، تلاحقني نظرات السادة الجالسين غير المصدقة ...

و بتؤدة جلس السيد (منير) ، و ظل صامتا لدقيقة كاملة ، كأنما يمنحنا الفرصة لنستعد ، قبل أن يبدأ في نفث الدخان و الكلام في وجوهنا :

- ***" أنتم تعرفون ما نحن مقدمون عليه أيها السادة ، لكن دعوني أنعش ذاكرتكم ... نحن هنا لنستخدم لوح الحقيقة ، الذي ظل لغزا لكل الباحثين و المؤرخين على مر الزمان ..."***

كنت أعرف ما سيقوله بالضبط ، لذا غبت في حالة الشرود ، و عيناي معلقتان على جثة الطفل الساكنة ، و التي لولا الدماء الجافة التي غطت وجهه ، لظننت أنه نائم و سيستيقظ في أية لحظة ...

لكنه لن يستيقظ ... أنا أعرف هذا و أثق فيه بحكم كوني طبيبا ... حادث سيارة أدى إلى شرخ في الجمجمة و تهتك في خلايا المخ ... موت سريع لكنه غير نظيف ، مع كل الدماء التي فقدها الطفل و والداه المذعوران يحملانه إلى المستشفى ، علنا نحن الأطباء نأتي بمعجزة ما ، تعيد الحياة إلى جسده الضئيل ...

لكن الحقيقة كانت جلية أمام أعيننا و منذ اللحظة الأولى ... هذه حالة منتهية ، كل ما علينا فعله هو تهدئة والديه الموشكين على الجنون هلعا ...

- ***" لوح الحقيقة صنعه السحرة في العصور الغابرة ، و الغرض منه استدعاء كيان ما غير محدد الهوية ، هذا الكيان يحتل الجثة التي توضع في تجويف اللوح ..."***

حين كنت طالبا في كلية الطب ، أخبرنا أحد الأساتذة ، أن أقسى لحظة سنمر بها ، حين نخبر أهل المريض بوفاته ... ستتعرض إلى عاصفة من الهلع و الاستنكار و عدم التصديق ، لكنك مع الوقت ستعتاد هذه لمهمة الشاقة ، و ستؤديها بصفة روتينية ...

أنا اعتدت هذه المهمة الشاقة ، بل و وصلت إلى الدرجة التي انتظرت فيها خروج والدي الطفل و هما في حالة انهيار تام ، لأحمل جثة طفلهما في حقيبة مليئة بالثلج ، لأنقلها إلى ثلاجة معدة خصيصا لهذا الغرض في داري ، انتظارا لليلة الموعودة ...

- ***" حين يحتل هذا الكيان الجسد الراقد على اللوح ، يحركه و ينطق عن طريقه ... الميت لا يعود للحياة ، لكن هذا الكيان يستحوذ على جسده و يسخره له ... و نحن نسخره لنا يخبرنا بالحقيقة .."***

بالطبع لم يمر اختفاء جثة الطفل من المستشفى مر الكرام ... كان هناك صراخ والديه ، و تحقيقات و اتهامات و أخبار في الصحف و في نهاية الأمر ... لا شيء !

تم اعتبار أن الطفل دفنت بهوية مختلفة عن طريق الخطأ ، و تلقى والداه تعويضا محترما سيساعدهما على إنجاب طفل آخر ، و ظلت أنا بمنأى عن أي شك ...

ما الذي يدفع طبيبا محترما مثلي إلى سرقة جثة طفل ؟!!

- ***" الحقيقة هي ما سنحصل عليه الليلة .. حقيقة الماضي و حقيقة المستقبل .. سؤال واحد لكل منا قد يفتح له أبواب المجد و الثراء و قد ينقذ حياته لو كانت ساعته قد أوشكت ... لذا اختاروا أسئلتكم بحرص شديد ..."***

كانت هذه هي اللحظة التي تبادلنا فيها النظرات ...

سؤال واحد لكل منا ... ترى أي سؤال ستختاره لو كنت مكان ؟!

فكر جيدا ... فإجابة سؤالك ، و كما قال السيد (منير) قد تفتح لك أبواب الثراء ، و قد تنقذ حياتك لو كانت ساعتك أوشكت ...

أنا أعرف عن ماذا سأسأل ، و سؤالي أيها السادة سيدر علي الملايين ... ملايين زوجتي الراحلة !

تلك اللعينة أخفت عني ثروتها قبل أن تموت ، بعد أن أدركت أن هذا سبب زواجي منه في المقام الأول ... تلك الحمقاء !!... لماذا تظن أنني تزوجتها إذن ؟!!

أي شاب يتزوج امرأة يتجاوز عمرها ضعف عمره ، هدفه واضح و صريح و إن أنكر الجميع هذا ...

لا مكان للعواطف أو لعقدة (أوديب) هنا ... إنني (إنديانا جونز) الباحث عن الثروة ، و تلك الحمقاء تملك الكثير ... بل الكثير جدا ...

قطع السيد (علاء) حبل أفكارنا ، بسؤال ساذج :

- ***"سؤال واحد ؟!... فقط ؟!!"***

أومأ السيد (منير) برأسه إيجابا ، ثم واصل بث الشرح و نفث الدخان :

- ***"ثمة شيء آخر يجب أن تحذروا منه ... هذا اللوح يفتح الباب بين عالمنا و بين عالم آخر لا يعم إلا الله ما الذي يوجد فيه ... لذا فهذه البلورة الزجاجية ستكون بمثابة جاهز الإنذار لنا .. حين تتألق البلورة باللون الأخضر سيعني هذا أن الاتصال بيننا و بين العالم الآخر قد نجح ... و حين تتألق باللون الأزرق سيعني هذا أن الكيان الذي سيجيب على أسئلتنا قد حضر ..."***

ثم ابتلع ريقه ، ليضيف :

- ***" المشكلة ستكون حين تتألق البلورة باللون الأحمر ، ففي هذه الحالة يعني هذا أنهم حضروا .. اللون الأحمر هو لونهم ..."***

جاء دور (رضا) ليهتف بعصبية :

- ***" من هم الضبط ؟!؟ لست أفهم شيئا من هذا الكلام الملغز ..."***

أخذ السيد (منير) يعبث في غليونه ، و هو يجيب :

- ***" كما قلت آنفا ، لا يعلم إلا الله ما يحويه هذا العالم الآخر ... لكن اللون الأحمر يعني حضور أسوأ ما في هذا العالم و أشده خطورة ... لو تألقت هذه البلورة باللون الحمر فسيعني هذا أن فرصتنا في النجاة من هذه التجربة ضئيلة ، لذا أكرر ... من يرد الانسحاب فليتفضل مشكورا من الآن ، فلا مجال للتراجع إذا بدأنا ..."***

ألجم الصمت الذي حل على المكان ألسنة الجميع ، فعدت إلى خواطري المضطربة ...

زوجتي بدأت تفهم الحقيقة منذ عام واحد تقريبا ... كانت مسنة لكنها امرأة ، لذا كانت تفهم معنى تأخري الدائم عن المنزل و معنى تلك الاتصالات الغامضة ، التي يغلق أصحابها الخط في وجهها إن ردت هي ...

هناك أخرى ... و ربما أكثر من واحدة ... و هذه هي الحقيقة !!

و حين واجهتني ، كنت قد سأمت بقاءها على الحياة حتى هذا الوقت ، لذا صارحتها بالحقيقة ببرود و قسوة ، عل الصدمة تحقق لي هدفي في ميراث سريع و مضمون ...

لكنها – اللعينة – تلقت الصدمة بالهستريا و الدموع و بإخفاء ثروتها عن حتى لفظت أنفاسها في أحد الليالي و هي تنعتني بأقذع الألفاظ ..

ما لم تعرفه حتى النهاية ، أن وفاتها لم تكن طبيعة ... لم تكن كذلك أبدا !!

- ***" هل سنبدأ أم ماذا ؟!؟"***

قالها السيد (منير) هذه المرة ، ليجيبه صمتنا بالإيجاب ، فقال :

- ***"ليخرج الكل الأوراق التي وزعتها عليكم ..."***

أخرجت تلك الورقة المطوية من جيب معطفي ، و فضضتها لتجري عيناي على تلك الأسطر اللاتينية التي كتبها السيد (منير) بخطه الأنيق المنمق ...

لست أفهم حرفا مما أمامي الآن ... لقد شرح لنا السيد (منير) المعنى من قبل ، لكنني نسيته ... على كل حال إنها ليست قصيدة شعر ، و لا ينبغي علي أن أقرأ من القلب !!

عبث السيد (منير) بأحد الأزرار في الحائط وراءه ، فانخفضت الإضاءة في الغرفة للحد الذي أصبحنا فيه نرى بعضنا البعض بالكاد ، ثم وضع غليونه – أخيرا – جانبا ، لنبدأ في ترديد التعويذة ...

" ما نياس ... ركاكس ... تينوس ... ما ساسيس "

كلمات كتبها السحرة في العصور الغابرة ، ترددها حناجرنا المرتجفة ، و أعيننا معلقة على جثة الطفل و على البلورة الزجاجية ...

" ما نياس ... ركاكس ... تينوس ... ما ساسيس "

تتألق البلورة باللون الأخضر لنعرف أننا على الطريق الصحيح ، فأثبت عيني على وجه الطفل الملطخ بالدماء الجافة منتظرا لحظة الحقيقة ...

" ما نياس ... ركاكس ... تينوس ... ما ساسيس "

اللون الأخضر يزداد تألقا ثم يتحول إلى الأزرق الشاحب البرد ، ليضفي على جلستنا الرهيبة هذه مذاقا خاصا ...

" ما نياس ... ركاكس ... تينوس ... ما ساسيس "

الآن تحدث المعجزة ، و نرى بأعيننا المتسعة ذهولا و وجلا ، تلك الرجفة التي تمر على جفني الطفل ، ثم نراه يفتح عينيه ببطء ، نحدق الجثة بعينين لا تريان في سقف الغرفة ...

كان (علاء) يرتج هلعا ... و (رضا) يرتجف انفعالا ... و (فهمي) يجاهد للحفاظ على تماسكه ، بينما تبدت اللهفة في عيني السيد (منير) و هو يرى الاتصال يتم بنجاح ...

" ما نياس ... ركاكس ... تينوس ... ما ساسيس "

الآن تتحول البلورة إلى اللون الأزرق ... و الآن أتذكر كيف قررت ذات يوم أن أنهي حياة زوجتي التعسة بيدي ، ما دامت تصر على البقاء حية ...

خبرتي كطبيب كانت تعني أن التنفيذ سيكون سهلا ، لكن الصعوبة تكمن في اتخاذ القرار ذاته ...

صحيح أنني كنت أكره تلك العجوز الشمطاء من أعمق أعماق قلبي ، لكن أن أراها تموت كل يوم بتأثير ذلك السم البطيء الذي كنت أدسه بانتظام في دوائها ، كان تعذيبا حقيقيا لأعصابي ...

كنت أراها ... تضعف ... تنهار ... تذوي ... تتلاشى ...

و لقد كانت هي تشعر أنني السبب في هذا كله ؟!!

- ***"من سيبدأ؟!!"***

قالها (علاء) بصوت مرتجف، فأجابه السيد (منير) على الفور :

- ***"لا فارق .. ابدأ أنت ..."***

احتشدت قطرات العرق في جبهة السيد (علاء) ، و نطق بصوت مختنق انتزعه من حقه انتزاعا :

- ***"سؤالي هو .. هو .. هل توجد طريقة كي لا أموت ؟!!"***

ها هو ذا أول سؤال للوح الحقيقة يبحث عن سر الخلود ...

و كـأنما يدفع السيد (علاء) هذا الاتهام عن نفسه ، قال دون أن ينظر لأحدنا :

- ***" إنني أموت ... تليف في الكبد ..."***

بالطبع كان هذا كافيا لي لأفهم ... تليف الكبد الناتج عن الإسراف في شرب الكحوليات .. لا علاج له ....!!

تعلقت أعين الجميع على وجه الطفل الذي ظل ساكنا كأي جثة ، ثم و ببطء شديد فتح الطفل فمه ليزوم ...

ليزوم بصوت ثابت عميق لا يمكن أن يصدر عن طفل بأي حال من الأحوال ...

و بتوتر هتف السيد (رضا) :

- ***" ما هذا ..؟!"***

لكن السيد (منير) أخرسه بإشارة من يده ، لتظل الكرة في ملعب جثة الطفل ...

الطفل الذي أخذ يزوم بصوت غير بشري ... صوت قادم من العالم الآخر !!

كنت خائفا و هذا ما لا يمكنني إنكاره .. ما يحدث الآن يفوق قدرتي على الاستيعاب ، و السبب واضح و صريح ..

هذا الطفل ميت .. جثة هامدة لا حياة فيها من أي نوع ، فأي كيان هذا الذي يستخدمها ليزوم ؟!

استمر هذا الصوت الرهيب المنبعث من الطفل طويلا ، فاقترح السيد (فهمي) :

- ***" هل ..هل نجرب سؤالا آخر ؟!"***
- ***" لم لا ؟!"***
- ***"إذن ، فسؤالي هو .. هل ..هل .."***

و لسبب ما بدأت ملامحه الأرستقراطية الجامدة ترتجف ، و رأيته – لأول مرة منذ عرفته – يتلعثم و هو يمسح قطرات عرق وهمية عن جبينه ، بمنديل حريري فاخر ، ليخرج سؤاله :
- ***" هل .. تخونني زوجتي حقا ؟!"***

تبدت الصدمة في ملامح الجميع ، إلا أنني شعرت بحنق بالغ و أنا أتساءل في أعماقي إن كان هؤلاء الحمقى يفهمون الغرض من هذه التجربة حقا ..

الأول يسأل عن علاج لمرضه و الآخر يسأل إن كانت زوجته تخونه .. لهذا جئنا بلوح الحقيقة و الجثة و قمنا بالمخاطرة في هذه التجربة المخيفة .. من أجل الهراء ذاته !

على كل حال استمر الزوم المخيف المنبعث من جثة الطفل دون أن يجيب على هذا السؤال أيضا ، فتعلقت نظراتنا الحائرة على وجه السيد (منير) الذي أشار لنا بيده إشارة أنه لا يفهم ما الذي يحدث بالضبط ..

و دون أن أستأذن ، ألقيت بسؤالي عليه يجذب اهتمام الكيان الذي يسيطر على جثة الطفل :
- ***" أين أخفت زوجتي ثروتها ؟!"***

الطفل يزوم بلا انقطاع كأنه يسخر منا ...!

و لم تحتمل أعصاب (رضا) كل هذا الاستفزاز ، فهب من على مقعده صائحا :
- ***" ما هذا العبث ؟!.. هل سيجيب هذا الوغد عن أسئلتنا أم ماذا ؟!"***

أثار تصرفه المفاجئ ذعر السيد (منير) الذي أخذ يردد شيئا ما باللاتينية ، ليتوقف الطفل عن إصدار تلك الضوضاء السخيفة ، و لتنطفئ البلورة الزجاجية دفعة واحدة ..

و بغضب هائل صاح السيد (منير) :
- ***" أيها الأحمق .. أتريد أن تقضي علينا جميعا بتصرفك هذا ؟!"***
- ***" إن كنت أنا أحمق ، فلماذا لا تفسر لنا أيها العبقري ما الذي يحدث بالضبط ؟؟"***
- ***" لا بد أن هناك شيئا ما لم نفعله .. هذا هو كل شيء .. سأراجع أوراقي و سنكرر التجربة في وقت لاحق .."***
- ***" كررها بمفردك إذن ، فلن أشارك في هذا السخف ثانية .."***

و دون أن ينتظر ردا ، اندفع مغادرا المكان بثورة ، ليتركنا نتبادل النظرات الحائرة ..

كان السيد (علاء) شاردا يفكر في كبده المتليف و موته القادم لا محالة ، بينما بدا السيد (فهمي) مثيرا للشفقة بحق ، و هو يحاول إخفاء وجهه بكفيه ، و قد أفشى سره أمامنا على هذا النحو ، بينما اكتفى السيد (منير) بأن أخذ يشعل غليونه و قد أعاد الإضاءة إلى الدرجة الطبيعية ، قبل أن يقول :
- ***" لا داعي للقلق .. سنكرر التجربة مرة أخرى لاحقا بعد أن أعرف ما الخطأ بالضبط .."***

كانت رسالته التي تطلب منا الرحيل واضحة ، فهز (علاء) رأسه بشرود ، وغادر المكان دون أن ينطق بحرف ، بينما وقف السيد (فهمي) و أخذ يبحث في ذهنه عن شيء لائق ليقوله ، فلم يجد سوى :
- ***"ليلة طيبة .."***

و غادر المكان ليتركني أشير إلى الجثة قائلا :
- ***" و ماذا عن هذا ؟!"***
- ***" اتركه لي قليلا .. ربما احتجت له لأفهم ما الخطأ الذي حدث .."***

لم أكن متحمسا للاحتفاظ بالجثة ، كما أن الإحباط الذي أصابنا جميعا ، كان يدفعني للإسراع بالمغادرة ، فقلت :
- ***"كما تشاء .."***

و غادرت الغرفة .. فالفيلا .. لأنطلق بسيارتي في الشوارع المظلمة بين بيوت المقطم الكئيبة ..

ليلة أخرى من عمري تضيع دون أن أعرف أين أخفت زوجتي ثروتها ..

ليلة أخرى من عمري لن تعود مجددا ..

****

لكن الليلة لم تنته عند هذا الحد ، و لا بد أنك توقعت هذا بصورة أو بأخرى ..

كنت قد أوشكت على الوصول إلى منزلي حين دق جرس هاتفي المحمول ، فرددت على الفور ليأتيني صوت السيد (منير) يهتف بانفعال لم أعهده فيه قط :

- *" (أنور) .. تعال فورا .."*

قالها ثم أغلق الخط على الفور دون أن يمنحني فرصة للرد ، و دون أن يجيب علي إذ أخذت أحاول الاتصال به لأفهم ما الذي حدث ..

ثم – و قد تغلب فضولي على حنقي – استدرت بالسيارة لأعود إلى المقطم ، و أنا أضرب أخماسا في أسداس .. ترى هل فعلها ؟؟

هل نجح ؟!

كانت الطرق شبه خالية في هذا الوقت ، لذا لم ألق مشقة في العودة إلى تلك الفيلا في المقطم ، لأجد أن سيارة السيد (علاء) تقف في الخارج ، ضاعف هذا من فضولي ، لأخرج من السيارة متجها إلى بوابة الفيلا ، التي لم أندهش كثيرا حين وجدتها مفتوحة ...

ثمة شيء ما حدث ها هنا ، و أنا أشم رائحة هذا الشيء لكني لا أدري كنهه .. تجاوزت الردهة و أنا أنادي بأعلى صوتي :

- *"سيد (منير) ... (علاااء) .."*

لم يجبني أحد فاتجهت على الفور إلى الغرفة التي أجرينا فيها التجربة ، و فتحت بابها و .. و ..

و كما توقعت تماما أيضا وجدت الهول ذاته في انتظاري ..

كان السيد (علاء) يقف قرب الباب ، و جسده ينتفض بهلع و عيناه جاحظتان بشدة ، بينما أخذ السيد (منير) يزحف على الأرض تجاهه و هو يمد يده أمامه و قد شحب وجهه بصورة مخيفة و تساقطت خصلات شعره على وجهه ، ليبدو كالموتى الأحياء في أفلام الرعب القديمة ، و قد اكتسى المشهد كله أمامي باللون الأحمر الساطع ، القادم من البلورة ..

(لكن اللون الأحمر يعني حضور أسوأ ما في هذا العالم و أشده خطورة .. لو تألقت هذه البلورة باللون الأحمر فسيعني هذا أن رصتنا في النجاة من هذه التجربة ضئيلة ..) ..

هذا ما قاله لنا السيد (منير) و هذا يعني أن هناك كارثة رهيبة موشكة على الحدوث ، إن لم تكن حدثت فعلا .. انتزعت الصرخة من حلقي :

- *"سيد (منير) .. ما الذي حدث ؟!"*

بالطبع لم يجبني أحد ، بل واصل السيد (منير) زحفه المخيف هذا تجاه (علاء) الذي شله الهلع تماما ، ثم توقف السيد (منير) أخيرا و إن ظل يشير بيده الممدودة إلى (علاء) ، لتخرج الكلمات من فمه ، بصوت لا يمت له بصلة :

- *" أنت .. أنت ستقيء دما حتى تموت .."*

قالها ثم تهاوى جسده دفعة واحدة !!

هنا بدأ السيد (علاء) في إطلاق الصرخات الهستيرية ، ففقدت أنا أعصابي نهائيا ، و حملت أول مقعد أمامي ، لأهوي به على البلورة الزجاجية ، لتتهشم بدوي أشبه بالقنبلة ..

ساد الظلام الغرفة ، ليرتفع صوت صرخات السيد (علاء) الهستيرية أكثر و أكثر ، بينما انحنيت أنا على السيد (منير) أفحصه ..

لكنه كان قد مات .. حالة منتهية كما اعتدنا أن نسمي كل من غادروا عالمنا البغيض هذا ...

ما الذي حدث هنا ؟!

و أين اختفت جثة الطفل ؟!؟!؟!

انتبهت إلى هذه الحقيقة الجديدة ، في اللحظة التي دخل فيها السيد (رضا) الغرفة ليضيئها ، و ينظر إلى المشهد الرهيب أمامه ، قبل أن يهتف بعصبيته المعتادة :
- *" ما الذي حدث ؟!.. ما الذي ..؟"*

لكنه بتر سؤاله ليهوي على وجه السيد (علاء) بصفعة هائلة أخرسته على الفور ، قبل أن يكرر هو هتافه :
- *" ما الذي حدث هنا ؟!!"*

أجبته محاولا التماسك :
- *" لا أعرف .. لقد وصلت لأجد أن السيد (منير) يموت و هو يشير إلى السيد (علاء) ، و الأسوأ من هذا أن جثة الطفل اختفت .."*
- *" ماذا تقول ؟!.. (منير) مات !! الطفل اختفى !!"*

ثم و بعملية يحسد عليها أسرع مغادرا المكان كله ، تاركا المأساة كليها على رأسي ..!

لم أجد أمامي سوى (علاء) الذي انهار يبكي ي ركن الغرفة ، فانحنيت عليه لأسأله :
- *" أخبرني ما الذي رأيته .."*

لكن حالته أجابتني بأن الحصول على رد منه ، سيكون ضربا من الخيال ، فتركته لأبدأ في البحث عن جثة الطفل التي اختفت .. لا بد أنها هنا في مكان ما .. لا بد لأنها جثة رغم كل شيء ..

لكن نتيجة بحثي الذي لم يسفر عن شيء ، جعلتني أقف في ردهة الفيلا أرتجف .. الجثة اختفت .. السيد (منير) مات .. و السيد (رضا) هرب ، و لا بد أن (فهمي) في الطريق إلى هنا ، بينما يبدو أن (علاء) قد فقد عقله إلى الأبد ..

ما الذي تفعله لو وجدت نفسك في مثل هذا الموقف ؟!

موت (منير) سيعني أن هناك تحقيقات و شرطة و اتهامات و سيتم ذكر موضوع سرقة جثة الطفل من المستشفى و الغرض من هذه التجربة و كل ما يكفي لتتدمر حياتك إلى الأبد ..

ما الذي ستفعله لو وجدت نفسك في مثل هذا الموقف ؟!

ببطء قدري أغمغم :
- *" هذا المكان يحتاج إلى تطهير .."*

و أبدأ في تطهيره ..

****

الآن أقود سيارتي مبتعدا عن المكان ، و قد ارتفعت ألسنة اللهب من الفيلا لتمحوها من الوجود ..

لا بد أن أحدهم استيقظ و أن أبلغ الشرطة و المطافئ ، لكن حين يصل هؤلاء سيكون الأمكر قد انتهى ، فلقد حرصت على إلقاء البنزين في كل ركن في هذه الفيلا الملعونة ..

السيد (علاء) .. حسن .. لقد حاولت إخراجه ، لكنه كان قد فقد عقله تماما ، و لم أكن لأخاطر بخسارة ك شيء أملكه من أجل مجنون مصاب بتليف كبد ..!

لست أعرف أين السيد (فهمي) و لا السيد (رضا) الآن ، لكني واثق من أنهما لن يتحدثا في هذا الموضوع مع أحد .. ستمحى هذه الليلة من تاريخنا ببساطة و إلى الأبد ..

الآن أقود سيارتي و أنا لم أخسر إلا فرصتي في معرفة مكان ثروة زوجتي الراجلة ، لكنني سأواصل البحث .. حتما سأجد الـ..

(زوجتك حولت ثروتها إلى ماس و أخفته في صندوق دفنته في القبو)

ارتفع الصوت من المقعد الخلفي فانتفضت بذعر ، لأنظر إلى الشيء الذي جعلني أصاب بالهلع لأصرخ بذعر هائل ، و لأفقد التحكم في السيارة ..

إلى الطفل الذي جلس في ظلام المقعد الخلفي ، و إن مر ضوء مصابيح الإنارة في الشارع على وجهه لحظة ، لأرى أنه يبتسم ابتسامة شيطانية مخيفة ..

لحظة واحدة رأيت فيها وجهه الملطخ بالدماء الجافة ، و تلك الابتسامة التي صاحبت جميع كوابيسي بعد هذه الليلة .. ثم سمعت بوق تك السيارة و رأيت مصباحين عملاقين يتجهان تجاهي بسرعة خرافية .. ثم .. ثم ..

ثم انتهى كل شيء بغتة ..

****

فيما بعد عرفت أن السيد (فهمي) قتل زوجته في ذات الليلة و سلم نفسه للشرطة ..

و عرفت أيضا أن السيد (رضا) غادر البلاد بلا رجعة ، بينما أغلقت قضية فيلا السيد (منير) المحترقة بعد أن عثروا على جثته و جثة السيد (علاء) ، دون أن يجدوا دليلا واحد يصلح لاتهام أحد به ..

أما أنا .. فلقد نجوت من الحادث حقا ، لكنني الآن مصاب بالشلل الكلي ، و لن يمكنك أن تتخيل كيف أن قدرتي على تحريك سبابتي اليسرى – آخر ما يمكنني تحريكه بإرادتي في جسدي – هي الشيء الوحيد الذي جعلك تقرأ هذه القصة ...

ثروة زوجتي في صندوق مدفون في قبو منزلي بالمناسبة لو أردت المغامرة و الحصول عليه ، لكن يجب أن أحذرك أيضا أنهم لم يعثروا على جثة الطفل في حادث السيارة ..

في الواقع لم يعثروا عيها حتى الآن !!

لا أعرف – و ربما لن أعرف – أين هو الآن .. لكني أتخيله دوما يجوب ظلال الطرقات بوجهه الملطخ بالدماء الجافة و ابتسامته الشيطانية المخيفة ..

وحده يعرف حقيقة ما حدث ..

وحده يعرف ما هو الثمن الذي دفعه البؤساء الذين تألق في وجوههم اللون ..

الأحمر ..

***

برتقالي ..

" كنت أعرف أن تعلق ابنتي بهذه الدمية غير طبيعي ... كنت أعرف هذا لكن تجاهلته .. لهذا أنا أستحق "

****

من الصعب دائما تحديد النقطة التي تبدأ من عندها الأحداث .. حين تقول (بدأ كل شيء منذ ..) فأنت لا تحدد البداية بدقة ، إنما تحدد الوقت الذي انتبهت أنت فيه لما يحدث طيلة الوقت من حولك ، و حتى هذا يخضع لقوة ذاكرتك ، و لا يوجد مثال أفضل مما قاله الكاتب العظيم ماركيز ، حين وف كتب التاريخ قائلا : (*التاريخ ليس ما حدث فعلا .. بل ما نتذكره و كيف نحكيه*) ..

من العب إذن أن أحدد لكم متى بدأت ابنتي في التغير ، لكنني سأقول أن كل شيء بدأ حين قرر زوجي السفر فجأة إلى الخليج بحثا عن المال الذي لم يجده هنا ..

أي زوجة تعرف تلك اللحظة التي يتحول فيها الزوج من الحبيب ذي الدر الدافئ ، إلى مصدر تمويل المنزل ، بل و تطالبه بها إن لم يفعلها هو بمفرده ... أنا أحبك نعم .. لكن هناك فواتير الماء و الطعام و الكهرباء و التليفون و مدرسة الطفل و الملابس و المناسبات ، و لن يغنيني دفء صدرك عن هذا كله ..

لهذا سافر زوجي .. لأنه أردك أن دوره في المنزل تقص إلى ماكينة رف نقود ، عيها ألا تضن علينا بالأوراق المحببة التي تشتري السعادة الحقة !

من الصعب دائما تحديد بداية الأحداث ، لكنني سأعود بذاكرتي على اليوم الذي اصطحبت فيه طفلتي (رنا) على السوق لتشتري بعض الألعاب ، و في هذا حل أكيد لبكائها الدائم على اختفاء أبيها من المنزل .. هذا هو أجمل شيء في الأطفال .. قدرتهم على النسيان ..

(رنا) تبلغ من العمر تسع سنوات ، وهو العمر الذي تعرفه أي أم و تمقته .. إنه الوقت الذي يتعلم فيه الطفل كيف يكون مزعجا و مؤذيا في الآن ذاته ، و هو العمر الذي تعتاد فيه الأم على ضرب طفلها في محاولة يائسة لتهذيبه ، تستمر حتى يكبر هذا الطفل و يترك المنزل بلا رجعة ، لكنني في هذا اليوم كنت أجر معي طفلة بائسة ، لا تفهم سر اختفاء والدها من المنزل رغم تعلقه الشديد بها .. من المستحيل على من في عمرها أن يفهم أهمية المال ، و هذه نقطة أخرى في صالح الأطفال ..

السخف في الأمر أن حزن ابنتي كان صادقا و قويا إلى الدرجة التي جعلت كل اللعب و الهدايا في نظرها ، أشياء حمقاء سخيفة لا يمكن أن تخفف عليها ، و الأسوأ من هذا أنني – و مع بؤسها المستمر – بدأت أرك حقيقة أنني أصبحت امرأة وحيدة .. امرأة بلا رجل و مسؤولة عن طفل !

صحيح أنني من شجع فكرة السفر ، لكن هذا لا يمنع من أنني أفتقد وجوده .. أفتقد صوته الرجولي و هالة الأمان التي يحيط بها المنزل .. كل هذا لم يعد موجودا لأننا نحتاج للمال اللعين !!

و هكذا بدأ الأمر يتحول من أم تحاول الترفيه عن طفلتها إلى ثنائي بائس يجوب طرقات المدينة بلا هدف ، حتى أنني قررت العودة إلى المنزل حيث يمكنني ممارسة حقي في البكاء بلا حرج ، حين توقفت ابنتي فجأة أمام متجر لألعاب ، و قد تعلقت عيناها على دمية محددة ..

دمية دب مكتنز ، في حجمها تقريبا ، و يحمل وجهه ابتسامة واسعة مرحبة ، بينما تحدق عيناها البرتقاليتان بإصرار في وجه الجميع .. دمية عادية لا تحمل أي ابتكار ، لكنها جذبت اهتمام (رنا) فانحنيت عليها لأقول بحنان :

- ***هل تريدينها ؟!***

هزت رأسها الضئيل أن (نعم) فلم تمض عشر دقائق حتى كانت تحملها بين ذراعيها لنتجه إلى المنزل ، و قد عبت وجهها الملائكي – أخيرا – ابتسامة رضا و حبور ..

ألم أقل لكم أنها طفلة ، و أنا ستنسى ؟! .. لكن ..

من يأتي لي بدب مكتنز يساعدني على النسيان ؟!!

****

لم ألحظ ما يحدث في بدايته لأنني كنت مشغولة ..

إنني الآن ألعب دور الأم و الأب ، وفي هذا مشقة أي مشقة .. لم أعرف حقا كم العبء الذي كان يزيحه زوجي عن صدري إلا في هذه الفترة ، و رغم كوني ربة منزل لا تعمل إلا أنني كنت أعاني الأمرين كل يوم من اللحظة التي تترك فيها (رنا) فراشها و حين تعود إليه ..

في نهاية اليوم أجلس وحدي على الفراش أسجل و بدقة مصاريف اليوم و ما تبقى من نقود و ما يجب علي ادخاره – زوجي لن يسافر إلى الأبد – و ما يمكن اقتطاعه لحسابي الشخصي ، و بعد أن أنتهي من هذا ، أظل بقية الليل أرمق الفراغ الكائن جواري على الفراش ، و الذي كان يحتله جسد زوجي منذ أسابيع قليلة ..
مهما حاولت المرأة ستظل أهمية وجود الرجل في حياتها حقيقة لا فرار منها !

كان كل شيء يسير على ما يرام ، لكنني لم أعرف أن ابنتي لم تكن هي الأخرى على فراشها ..

ما عرفته بد ضلك أنها كانت تمضي ليلتها كلها تتحدث ..

تتحدث بصوت خافت مرتجف إلى دميتها .. الدب المكتنز ذو العينان البرتقاليتان ..

متى عرفت هذه الحقيقة الجديدة ؟!

حسنا إنني أتذكر هذا اليوم جيدا ..

****

كان يوم اثنين ، و كنت قد استيقظت منذ السادسة صباحا كعادتي لأعد طعام الإفطار لـ(رنا) قبل أن أوقظها لتذهب إلى المدرسة ، لكنني حين ذهبت إليها في غرفتها وجدتها جالسة على فراشها و قد بدا جليا من عينيها المحتقنتين و الإرهاق البادي على وجهها الملائكي ، أنها لم تنم إطلاقا ..

سألتها بقلق :
- *رنا .. هل أنت مريضة ؟!*

هزت رأسها أن (لا) ، فسألت :
- *ألم تنامي جيدا ليلة أمس ؟!*

هزت رأسها أن (لا) مرة أخرى ، فسألت :
- *لماذا ؟!*

هنا ظلت (رنا) صامتة قليلا كأنما تستجمع طاقتها لتجيب ، ثم مدت يدها ببطء تشير إلى دبها المكتنز دون أن تنطق بحرف ، ففهمت أنا الموقف – كنت حمقاء و لم أفهم شيئا لكني لم أعرف هذا في حينه – و هتفت فيها :
- *أخذت تلعبين طيلة الليل و لم تنامي .. أليس كذلك ؟!*

لم تجبني (رنا) هذه المرة ، و بدا و كأنما قد استنفذت طاقتها كلها ، فقررت أن أتركها هذا اليوم دون أن تذهب إلى المدرسة ، و قلت بغيظ :
- *إذن ارتاحي اليوم .. لا مدرسة ..*

لكنني قبل أن أخرج أخذت الدب المكتنز معي و أنا أردف :

- *و لا لعب كذلك .. هيا .. نامي ..*

و هكذا أغلقت عليها الباب و عدت إلى غرفتي لأظفر بالنوم ، و قد بدا أنني قد أحظى بساعات نوم إضافية هذا اليوم ، دون أن يؤدي هذا إلى كارثة ..

ألقيت بالدب على أحد الأرائك في ردهة المنزل ، ثم ذهبت إلى غرفتي لأنام ، على أن أستيقظ بعد عدة ساعات لأعد طعام الغداء و لأواصل طقوس اليوم المعتادة ..

كان يوما عاديا لم يستجد فيه شيء .. (رنا) استيقظت عصرا و قد بدا عليها الانتعاش ، و قضت يومها في مذاكرة دروسها تحت إشرافي و في نهاية اليوم سمحت لها بالجلوس أمام التلفاز قليلا حتى أتت الساعة التاسعة مساءا فحملتها حملا إلى فراشها ، و أنا أقول :

- *نامي جيدا .. ستذهبين إلى المدرسة غدا ..*

و بعد أن أوت إلى فراشها ، عدت أنا إلى غرفتي لأواصل تسجيل مصاريف اليوم الجديد ، و هي عادة غير مفيدة على إطلاقا ي حالة الادخار ، لكنها تقتل الوقت قتلا و هذا ما أحتاج إليه حقا ..

أتذكر يومها أنني – و حين تسلل النعاس إلى جفوني – قررت أن أمر على غرفة (رنا) أولا ، لأتأكد من أنها (تأكل أرزا مع الملائكة كما يقولون) لكني لم أكد أصل إلى باب غرفتها حتى سمعتها تتحدث ..

تتحدث بصوت خافت مرتجف ، لم أميز معه ما تقوله بالضبط ، ذا دخلت على الفور لأرى ما الذي يحدث بالضبط ، فوجدتها تجلس على الفراش ، و قد وضعت دبها المكتنز – الذي التمعت عياه البرتقاليتان على ضوء القمر – أمامها تتحدث إليه بخوف شديد استحال إلى فزع حين رأتني ..

كنت حمقاء أيها السادة لذا فلم أفعل سوى أنني صرخت فيها و جذبت الدب من أمامها و أنا أهتف بصرامة :

- *نامي فورا ..*

و على عكس ما تخيلته ، لم تقاوم ، بل و بدا الأمر و كأنها كانت تنتظر من يأخذ الدب من أمامها ، فحملته معي خارجة من الغرفة لألقيه في الصالة مجددا ..

لم أكن أعرف .. لم أكن أفهم .. و لهذا استمر الأمر أكثر من هذا ..

****

هكذا اعتدت أن أحمل الدب من أمامها كل ليلة لأتأكد من أنها ستنام ..

اعتدت أن ألقي الدب على أحد الأرائك في الصالة ، ثم أنام و يمر اليوم ، و في المساء أحمل الدب مجددا من أمام (رنا) ي غرفتها .. ما دامت ابنتي تخشاه إلى هذا الحد ، فلماذا كانت تحمله إلى غرفتها كل ليلة إذن ؟!..سؤال بديهي لكنني لم أفكر فيه قط ، حتى جاء اليوم الذي دفعني للبدء في التفكير في هذا الموضوع ..

كنت أمر بطقوس اليوم المعتادة ، و كنت قد بلغت ذروة إرهاقي مع حلول الليل ، حتى أنني قررت أنه لا داعي لتسجيل مصاريف اليوم ، لكني قررت أن أمر على غرفة (رنا) للاطمئنان عليها قبل النوم ، و حين دخلت عليها كانت هناك مفاجأة عجيبة بانتظاري .. في تلك الليلة بدأت القلق .. في تلك الليلة بدأت الخوف ..

كانت (رنا) قد فصلت رأس دميتها ع جسدها الذي ألقته في ركن الغرفة ، بينما وضعت الرأس المقيت في حجرها ، تنظر إلى العينين البرتقاليتين بوجل ، و تهمس محدثة رأس الدب بخوف ..

أي طفلة التي تلعب بهذه الصورة ؟!!

لم أشعر إلا و أنا أنتزع الرأس من يدها ، لأصرخ فيها بعنف لم أعتده في نفسي ، بينما ظلت هي صامتة على الفراش ، تسيل دموعها قطرات على وجنتيها ، و سهام من نار في قلبي .. لماذا يا (رنا) ؟! لماذا ؟!!

بالطبع أصابتني دموعها بالهستيريا ، و بعد كثير من الصخب كنت أحتويها في صدري و نبكي سويا ..

- ***ماذا قطعت الرأس يا (رنا) ؟!***
- ***هو أخبرني .. قال أن الجسد غير مهم ..***
- ***من هو ؟!!***
- ***الذي يعيش في العينين البرتقاليتين ..***

****

الأطفال يصابون بالاضطرابات حين يفقدون أحد والديهم .. قرأت هذا من قبل و أذكره الآن ..

(رنا) تفتقد والدها بشدة ، و هذا هو كل شيء .. لا داع للإصابة بالجنون .. لا داع للانتحار !

(رنا) مضطربة نفسيا .. لكن .. ما الذي علي أن أفعله أكثر من هذا ؟!!

بالطبع لم أكن قد وصلت بد إلى المرحلة التي تمكنني من ربط كل ما يحدث بالدمية .. أنت تنظر الآن إلى الموضوع من أعلى مما يمكنك رؤية الصورة كاملة ، أما أنا فكنت تفصيلة صغيرة في الصورة الكاملة ، لا يمكنها سوى أن تنظر إلى التفاصيل الصغيرة من حولها ..

ذهبت إلى طبيبة نفسية بحثا عن المشورة .. و إلى دجالة معروفة بحثا عن الأمل .. و لم أترك بابا إلا توسلت أمامه علني أفهم ما الذي أصاب ابنتي بالضبط ..

إنها لا تتحدث إطلاقا .. لا تنام أبدا .. لا تفعل شيئا سوى التحديق المستمر في عيني رأس الدب البرتقاليتين كأنما في هذا راحتها الوحيدة .. حاولت التخلص من رأس الدمية ، لكن دموعها الصادمة كانت تجعلني أتراجع في كل مرة ..

إنها طفلة بائسة تتعذب ، فلماذا أحرمها من الشيء الوحيد الذي تريده ؟!

بالطبع لم آخذ كلامها بخصوص الشيء الذي يعيش في العينين البرتقاليتين بجدية ، بل اكتفيت بالاعتقاد أن ابنتي أصيبت بالخبال لشدة الحزن ، و أنه علي أن أساعدها بأي وسيلة ..

كنت أعرف أن تعلق ابنتي بهذه الدمية غير طبيعي ... كنت أعرف هذا لكني تجاهلته .. لهذا أنا أستحق ما حدث بعد ذلك ..

أستحقه تماما ...

****

في أحد الأيام و أثناء تجولي في السوق لأشتري ضروريات المنزل ، شعرت بذلك الهاجس الخفي الذي تشعر به أي أم ، و الذي يخبرها أن طفلها في خطر .. هذا هو الهاجس الذي يوقظنا في منتصف الليل لنجد طفلنا الرضيع يكاد يسقط من على فراشه .. لا معجزات في المر .. لكنه شعور داخلي عميق ..

كنت قد تركت (رنا) في المنزل – فهي لم تعد تذهب إلى مدرستها منذ زمن – لذا أخذت في طريق عودتي إلى المنزل ، أبني تصورات سوداوية عما يمكن أن يكون قد حدث ..

قد أشعلت النار في الشقة و هي الآن تختنق حتى الموت ... لقد دست إصبعها في قابس الكهرباء ... لقد ألقت بنفسها من الشرفة .. شيء ما حدث !

لكني حين وصلت إلى المنزل ، وجدت ما هو أسوأ من هذا كله ... كانت ابنتي (رنا) تجلس على أرض الصالة ، و رأس الدب و العينين البرتقاليتين أمامها يحدق فيها بثبات ، و هي تبكي بهستيريا مخيفة كأنها رأت مذبحة مخيفة منذ لحظات ..

ألقيت بكل ما في يدي ، لأرفعها من على الأرض و لأدفنها في حضني و أنا أردد بجزع :

- ***(رنا) حبيبتي .. ما الذي حدث ؟!***
- ***بابا!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!***
- ***أعرف يا حبيبتي .. أعرف .. إنك تفتقدينه ، لكن ... لا بأس سأتصل به و أطلب أن يعود و ..***
- ***بابا .. ما!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!ات ..***
- ***!!!!!!!!!!!!!!!***
- ***أريد بابا!!!!!!!!!!!!!!!!!***

أصابتني كلماتها بالجنون ، فلم أشعر بنفسي إلا و أنا أرجها بعنف ، صارخة :

- ***من قال هذا ؟!!***

ببطء أشارت بيدها إلى رأس الدب ذي العينين البرتقاليتين ..

في هذه اللحظة شعرت .. في هذه اللحظة فهمت .. في هذه اللحظة أدركت الحقيقة كاملة بلا رتوش ..

و هنا ارتكبت أكبر خطأ في حياتي كلها ..!

تركت طفلتي و أسرعت أعدو إلى السنترال المجاور للمنزل ، لأحاول الاتصال بزوجي .. يجب أن أسمع صوته الآن ، و يجب أن يعود إلى المنزل اليوم ..!!

وصلت إلى السنترال و طلبت الرقم بأصابع مرتجفة ..

**و مع كل مرة كان يجيبني فيها الرنين المستمر كنت أفقد أعصابي أكثر و أكثر .. أين أنت أيها الوغد ؟!!
و ارتفع ذلك الصوت المقيت في أعماقي يردد : لقد مات .. لقد مات .. لقد مات .. لقد مات .. لقد مات .. لقد مات .. لقد مات ..لقد مات .. لقد مات ..**

و لعد محاولات استمرت ساعة كاملة ، أصبح عندي يقين أنني تحولت إلى أرملة .. أرملة مسؤولة عن طفلة مخبولة ..

(رنا) .. لقد تركتها بمفردها .. يا إلهي ...!!

و هكذا عدت أسرع الخطى إلى المنزل و أعصابي تحترق ي رأسي ، و حين وصلت إلى المنزل كنت أتمنى شيئا واحدا ..

أن أعثر على ابنتي حية !!

و الواقع أنني عثرت عليها حية .. الواقع أنني أذكر هذا المشهد بالذات جيدا فأنا أراه في كل لحظة من حياتي و حتى الآن .. الواقع أن أحدا لن يصدق ما رأيته أنا في تلك اللحظة ..

كانت ابنتي تقف في صالة المنزل و على وجهها تعبير جاف مخيف ، بينما صوتها الخافت ينادي :

- ***أمي .. أمي ..***

لم تكن شفاهها تتحرك ، لكني كنت أسمع صوتها واضحا ، و حين انتبهت إلى مصدر الصوت الحقيقي ، تجمدت الدماء في عروقي ..

و مأخوذة تجاوزت ابنتي التي تحولت إلى تمثال صامت لم ينطق إلى يمنا هذا ، و حملت رأس دمية الدب ذي العينين البرتقاليتين ..

الرأس الذي ارتفع منه وت ابنتي الخافت يقول :

- ***أمي .. أنا هنا ..!!***

***

أصفر ...

سوف أخبرك بالقصة كلها لكن من فضلك لا ترفع صوتك .. إن أعصابي مرهقة بما يكفي و لا أتحمل أي نوع من الحماس يتطوع به الآخرون ..

في مراجع الطب يطلقون عليها اسم (زانثوبسيا) .... قليلة هي حالات (الزانثوبسيا) .. قليل هم الأطباء الذين سمعوا عن (الزانثوبسيا) ...

تقول مراجع الطب إن مرضى الصفراء – حالات محدودة جدا من مرضى الصفراء – يرون العالم أصفر .. هناك عقاقير معينة تسبب الحالة ذاتها ..

من المخيف أن ترى العالم و قد صار مصابا بفقر الدم .. لو رأيت هذا على شاشة التلفزيون لأصابك الهلع و جريت إلى أقرب خبير الكترونيات ليعالج هذا الخلل ، أما أن تراه بعينيك و أ،ت تعرف أن هذا هو ما تراه فعلا فإن هلعك لا يوصف بكلمات ..

أما الأكثر إثارة للتوجس فهو أن هذه ليست حالة (زانثوبسيا) .. لا يوجد سبب يفسر ما تراه الآن .. فهل هو الجنون ؟

****

اسمي (محمد صبري) .. لا بد أنك خمنت ذلك ؟؟ لماذا ؟.. لأنه لا يوجد واحد آخر في العالم يراه أصفر سوى (محمد صبري) ..

بدأ كل شيء كما تعلم عندما صحوت من النوم ذلك الصباح لأجد أن كل شيء في الكون أصفر .. فركت عيني مرارا و اتجهت إلى الحمام و غسلت وجهي و عيني . غسلتهما حتى احترقتا تقريبا ثم نظرت للكون من حولي : أصفر ...

ماذا دهاني ؟... ماذا حدث ؟

فتحت النافذة و نظرت إلى السماء .. ما زالت فيها زرقة اختلطت باللون الأصفر فصار المزيج أقرب للخضرة .. من قال إن الأخضر جميل ؟.. أنا لم أر في حياتي أقبح من هذه السماء الخضراء ..

عدت للداخل و حاولت أن أتماسك .. ثمة شيء ما خطأ ..

كانت أمي قد صحت من النوم .. متثائبة خرجت من غرفة النوم و تحك شعرها ... يبدو أن وجهي أثار قلقها لأنها سألتني :

- ***" ماذا بك ؟"***

قلت و أنا أوسع عيني عن آخرهما :

- ***" أصفر .. كل شيء أصفر !"***
- ***" بسم الله الرحمن الرحيم !"***

سألتها و أنا أرتجف في جنون :

- ***" هل ترين العالم أصفر من حولك ؟"***

قالت و قد زالت عنها أمارات النوم في لحظة :

- ***" لا .. ك شيء على ما يرام .. لا بد أنك مرهق .. إن عادة السهر مع أصدقائك هذه .."***

قلت في عصبية و أنا أبتعد عنها :

- *" لو كنا نقضي أمسياتنا في احتساء الخمور و تدخين الحشيش و قتل الأطفال فهذا غير كاف لتبرير ما أراه الآن .."*

عندما انتصف اليوم صرت حتى واثقا من أن ما أراه لا يراه أحد سواي ..

و مر الوقت كالكابوس حتى دنا عقرب الساعة من الثانية .. في هذا الوقت يتثاءب الكهنة و يتجهون – حاملين أسرارهم – إلى عياداتهم الخاصة ليبيعوها مقابل المال .. الكثير منه .. و أنا بحاجة إلى كاهن ... سأمنحه ما يطلب مقابل أن يمنحني قبسا من علمه ..

الكاهن الذي قصدته هو د.(سمير عبد العليم) ... دكتوراه في طب العيون و زميل فعدد من الكليات الغربية .. أجلس في عيادته أراقب العالم الأصفر .. ماذا لو كتب علي أن أراه بهذا الشكل ما بقي لي من عمر ؟ .. لا ..لا .. مستحيل .. ما أراه علامة مرضية لا ريب فيها .. و هذه العلامة المرضية سوف تعني للكاهن الأكبر عن مرض أكبر و أخطر .. ربما يفتك بي ..

لكن ما المشكلة ؟ .. من يريد أن يرى العالم أصفر ما تبقى له من عمر ؟

لهذا حين جلست أمامه في المحراب ، كان آخر شيء أرجوه هو أن يقول لي :

- *" أنت سليم تماما ..!"*

ما تخشاه قد حدث .. إنها لعنة و أنت أول ضحاياها ..

قلت له في عصبية :

- *" لكني أرى العالم أصفر !"*

قال في حنكة :

- *" عيناك سليمتان تماما .. رؤية العالم أصفر تحدث في حالات محدودة جدا و بالتأكيد أنت لست حالة منها .."*
- *" و العمل ؟"*

أشار إلى عينه و اقل :

- *" لا مشكلة هنا .."* – و أشار إلى رأسه بحركة ذات معني و قال – *" المشكلة هنا .."*
- *" تعني أنني مجنون ؟"*
- *" الجنون كلمة ابتذلناها من فرط الاستعمال .. هناك كلمة أخرى اسمها العصاب .. هناك أمراض في المخ تسبب استقبال الحواس بشكل خطأ .. لا أعرف .. فقط أملك أن أتحدث عن مملكتي .. و مملكتي لا يوجد فيها مبرر رؤية الأصفر .."*

هكذا فارقته أجر أذيال الخيبة .. و بحركات كالمنوم مغناطيسيا اتجهت إلى شقة أخرى في البناية التي تعج بالكهنة .. هذا كان مخ .. لا بد أنه يملك الجواب ..

لم يأت رد كاهن المخ سريعا بل أرسلني إلى كهنة آخرين قاموا لفحص رأسي بالأشعة .. و كهنة قاموا بتويل أقطاب بمخي و قرءوا النتائج على الورق ..

و في النهاية قال لي الكاهن الأكبر ما كنت أخشاه :

- *" أنت سليم تماما !"*
- *" لكن ما أراه ليس سليما ..!"*
-

قال باسما :

- *" إنه إرهاق لا شك فيه .. ستتناول بعض المقويات و أعتقد أنك ستشفى خلال أيام .."*

أي أنه قال بعد كل هذا الجهد ما قالته أمي التي لا تقرأ و لا تكتب بعد ثانية واحدة .. ماذا يتعلمون ف تلك الكليات إذن ؟

أصفر ..

العالم كله أصفر .. السماء و السيارات و شفاه الفتيات و الأزهار و حقائب الطلبة و الكلاب الضالة و عربات الإطفاء و إشارات المرور ..

أصفر .. أوراقي و ثيابي الداخلية و شاشة التلفزيون و وجوه أصحابي ..

أنا الوحيد الذي يعاني مشكلة كهذه و أنا الوحيد القادر على حلها ..

سوف أسترجع ما كان في حياتي الشهر الماضي ..

****

ليلة الخميس عن صديقي (شريف) .. عندما استبد بنا الملل ليلا و قلت له إنني أعرف لعبة مسلية حقا ..

هات رقعة من الورق المقوى و اكتب عليها الحروف الأبجدية كلها .. هات كوبا مقلوبا ... اجلسوا يا شباب حول هذه المنضدة و ليضع كل منا إصبعا على قاعدة الكوب و لنظلم المكان .. سنجرب تحضير روح ..

(شريف) كان قلقا لأن هذه التجارب تتم في داره لكننا سخرنا منه ..

و هكذا جلسنا .. و هكذا مضى الوقت و نحن ننتظر أن يحدث شيء .. أحيانا كان أحدنا يطلق مواء مفاجئا فنثب في الهواء مترين .. عندها كان يضحك بينما ننظر له في قسوة ...

- ***" لا يستحب المزاح في أمور كهذه .."***

ننتظر .. أتبادل النظر مع (عصام) و (جمال) .. أتمنى أن أزحزح الكوب بنفسي لأداعبهما .. لكن لا .. دعابة قاسية هي ..

و يمر الوقت .. و هنا يرتفع صوت (شريف) :
- ***" كفى .. واضح أن هذه خزعبـــ ... "***

هنا بدا الكوب يتحرك .. لا خداع في الأمر .. لا أحد منا يحركه بنفسه .. أنا متأكد من هذا ...

يتجه الكوب إلى حرف (الكاف) .. ثم حرف (الفاء) .. ثم (الياء) ..

ك – ف – ى

ك – ف – ى

يهتف (شريف) في حماس ممزوج بالهلع :
- ***" كفى .. يقول لكم كفى !"***

الكوب يواصل الحركة :
أ – ن – ت – م – ت – ل – ع – ب – و – ن – ب – ا – ل – ن – ا – ر
س – ت – ح – ل – ب – ك - م – ل – ع – ن – ة – ا – ل - ش – ي – ا – ط – ي – ن

هنا فقط لم تتحمل أعصاب (شريف) أكثر ..

صرخ وأضاء النور ثم هتف بنا :

- ***" انتهى !.. لا أريد هذه الأمور في بيتي .. بالذات لا أريدها في غرفة نومي !"***

ثم حمل الكوب و أطاح به من النافذة ..

قال (جمال) بصوت مبحوح من فرط التوتر :

- ***" ما رأيكم ؟"***

قلت بصوت مبحوح أكثر :

- ***" كان هناك شيء يقينا .. و قد لبى نداءنا !"***

قال (عصام) و قد بدت عليه الجدية :

- ***" المشكلة هي .. هل انصرف ؟"***

نظرت له و نظرت للرقعة و لم أستطع الرد ..

كان هناك شيء .. ز قد أنذرنا بأن لعنة الشياطين ستحل بنا .. لكننا لم نعرف بعد هل انصرف أم لا .. الآن حينما أفكر في الأمر يبدو لي هذا سيناريو لعنة ..

هل لعنة الشياطين حلت بعيني ؟ ... و ماذا عن باقي المتورطين ملوثي الأيدي ؟...

****

أسترجع ما كان في حياتي الشهر الماضي ...

في مكتب الدكتور (داود) أستاذ الكيمياء في كليتي ..

لقد استدعاني – ليوبخني طبعا – في ذلك الثلاثاء الحار .. دخلت المكتب فلم أجده لكني قدرت أنه عائد حالا .. هناك كوب ماء على مكتبه و قدح قهوة ساخن ..

هكذا سمحت نفسي بالجلوس ...

رحت أتأمل ور أسرته على الجدار .. من الغريب أن لهذا الرجل أسرة مثلنا .. يلبس المنامة و يجس أمام التلفزيون و يعبث في أصابع قدميه ..لم يولد من بطن أمه بالمعطف الأبيض حاملا تحت إبطه مظروف أوراق الامتحانات ..

الطقس حار فعلا .. هكذا مددت يدي إلى كوب الماء و جرعت جرعة لا بأس بها .. منذ طفولتي أعاني تلك المشكلة .. أنا أشرب أولا ثم أتذوق بعد هذا ..

و هكذا أدركت أن هذا الذي شربته ليس ماء .. إنه سائل كريه له مذاق الزئبق لو كان للزئبق مذاق .. بصقت في منديلي ثم نسيت الأمر لأن الرجل دخل المكتب لحظتها فهببت واقفا ..

قال لي و هو يخرج شيئا من جيبه :

- ***" آه .. هأنتذا أتيت يا أبا جهل .. إن درجاتك في امتحان أعمال السنة ..."***

ثم تب و نظر إلى الكوب الفارغ و هتف :

- ***" من فعل هذا ؟"***

كنت أعرف أنني سأُلام على شيء ما فهززت رأسي ف غباء بما معناه أنني لا أعرف .. قال و هو يعيد تفحص الكوب :

- *" غريب هذا .. كان خطأً فادحا أن أضع المحلول في كوب ماء لكنني لم أتوقع أن يدخ أحدهم مكتبي .. هذا ما تفعله الأمهات الجاهلات حينما يضعن صودا الغسيل في أكواب ماء لتبدو كاللبن ، و يشربها الأطفال .. كل حالات احتراق المريء في مر تعود هذا السبب الغبي .."*

و حك رأسه في ضيق و غمغم :

- *" و أنا فعلت الشيء ذاته .."*

سألته في حذر و أنا أتحسس بطني :

- *" هل ما كان في الكوب صودا غسيل يا سيدي ؟"*
- *" ليته كان كذلك .. إنها تجربة أقوم بها حاليا و نتائجها هي ...."*

ثم بدا عليه نفاد الصبر و قال و هو جلس خلف مكتبه :

- *" أنا متعكر المزاج الآن .. عد لي في وقت آخر .."*

متعكر المزاج ؟ .. و منذ متى لم يكن كذلك ؟

الآن أتذكر هذا الحادث و اسأل نفسي : هل للسائل الذي كان في كوب علاقة بما حدث ؟

****

أسترجع ما كان في حياتي اشهر الماضي ...

و (سلوى) الفتاة التي صارت كل شيء في حياتي تسند رأسها إلى الشجرة ..

لم أر حتى هذه اللحظة إنسانا أو جمادا أو مكانا أو حلما أجمل ولا أرق منها .. لقد ذهبت بصوابي تماما .. أدنو منها و أهمس في أذنها كم أحبها ..

تنظر في شرود على الأفق و تهمس :

- *" لا أعرف .. لو أنك عرفت حقيقتي .. لو عرفت من أنا حقا ... فلربما بدلت هذا الرأي .."*

هذا مشهد من فيلم عربي .. هل ستصارحني بأن أمها راقصة أو أن أباها هو (خط) الصعيد ؟

تقول و هي تتنهد :

- *" أنا من عالم آخر .. أرى الأشياء ليس كما ترونها أنتم .. أسمع الأصوات ليس كما تسمعونها أنتم .. أنا مختلفة .. هل تفهم هذا ؟"*

فعلا هي مختلفة .. منذ جاءت إلى الكلية منذ ثلاثة أشهر و كل واحد منا يدرك أنها مختلفة .. لقد جاءت من عالم آخر فعلا ..

قلت لها :

- *" أتمنى أن أكون معك في هذا العالم .."*

تقول و هي تنظر ي مي شفقة :

- *" لن تحب هذا يا مسكين .. ربما تحو يوما فتجد السماء خضراء و العشب أحمر .. ربما تسمع رائحة الياسمين و تشم النجوم "*
- *" ما دمت معك فلا أبالي لو شممت نهق الحمير و سمعت الطين"*

ضحكت كثيرا ثم قالت لي في ثبات :

- ***" هل أنت متأكد ؟.."***
- ***" متأكد "***

مدت لي إصبعها و همست :

- ***" هلم .. اجرح إصبعي و سأجرح إصبعك .. سو نتبادل الدماء .. و بهذا تصير من عالمي و أصير من عالمك .."***

لم يبدو لي الأمر صحيا ... إن التهاب الكب الوبائي ينتقل بطريقة مماثلة على ما أذكر ... لكن الرومانسية جعت ك شيء ممكنا و فعلت كما طلبت و امتزج دمينا ...

لت لنفسي وقتها إنها رومانسية .. كل الرومانسيات يقلن الكلام ذاته ..

لكن – الآن يتصلب شعر رأسي – ماذا لو لم تكن تمزح ؟ ... ترى الأشياء لا كما نراها نحن .. السماء خضراء ؟ ...

ترى أين كانت (سلوى) قبل أن تظهر في كليتنا ؟ .. لا أحد يعرف عنوانها أو رقم هاتفها و م يرها أحد تأكل أو تشرب من قبل ..

و أنا خلطت دمي بدمها !

****

أسترجع ما كان في حياتي الشهر الماضي ..

صديقي (علاء) هو الذي أحر اللفافة ..

قال لي ضاحكا :

- ***" لم يجرؤ أحد على فتحها قط .."***

ضحكت بدوري في تهكم و تحسستها .. كان ملمسها مخيفا فعلا ..

قلت له ف قلق :

- ***" هذه تهمة خطيرة .. سرقة آثار لا يمكن إنكارها .."***

قال و هو يضع اللفافة ف يدي :

- ***" من سرق ماذا ؟.. قلت لك إنني وجدتها في الأقصر .. و لو لم أدسها في جيبي لفعل أحدهم نفس الشيء .."***

قلت له في شغف :

- ***" هل تعرف شيئا عنها ؟ .. إلى أي أسرة تنتمي ؟.."***

مط شفته السفلى بمعنى أنه لا يعرف ثم أضاف ساخرا :

- ***" تتظاهر بالعبقرية .. و لو قلت لك إنها من الأسرة السادسة مثلا لما فهمت شيئا و ما استفت من هذه المعلومة .."***

ثم أردف و هو ينظر حوله في حذر :

- ***" هذه الأشياء تكون ملعونة .. رأيي الخاص ألا نجازف بفتحها .."***

قلت في ضيق :

- *" و هل تريد أن نبقيها للأبد كحرز ؟"*
- *" لا أعرف .."*
- *" الفضول قتل القط و أنا قط كبير .."*

و مددت يدي أعاج أربطة الكتان المحيطة بها .. كانت هناك لوحة على صدر الشيء .. لوحة دقيقة أنيقة تمثل عين (رع) و قد خرجت منها إشعاعات صفراء .. كأنها شمس أخرى ..

- *" جميلة .. تحفة فنية .."*
- *" لكن ما معناها ؟"*
- *" غالبا تعد بأن (رع) سيخرب بيت من يفتح هذه اللفافة .."*

واصلت الفتح .. أخيرا بدا لنا الجعران العملاق بحجم كف يدك .. كان مثيرا للاشمئزاز لكنه جع أنفاسنا تخفق في انبهار ..

قلت لـ (علاء) :

- *" كما ترى .. لم يحدث لنا شيء .. لا أعتقد أن الفراعنة كان عدهم وقت كاف لحماية مومياء جعران .."*

اليوم أفكر في الأمر مليا .. لماذا عين (رع) ؟ .. و لماذا اللون الأصفر ؟

****

أسترجع ما كان في حياتي الهر الماضي ...

هل هي لعنة الشياطين حلت بشباب عابث يلعب بالنار ؟ أم هي وصفة كيميائية شريرة ذات آثار جانبية مخيفة ؟ .. أم أنني عبرت عالم (سلوى) و صرت منه .. عالم الذين يرون كل شيء بلون مختف ؟ .. أم أن عنة كهنة (رع) أصابتني ..؟ .. أم أنه لا تفسير هناك ؟

كل شيء من حولي أصفر ..

الكتب .. الأبواب .. رجال الشرطة .. القطط .. السماء .. السيارات .. شفاه الفتيات .. الأزهار .. حقائب الطلبة .. وجهي في المرآة .. الكلاب الضالة .. عربات الإطفاء .. أوراقي .. ثيابي الداخلي .. شاشة التلفزيون .. وجوه أصحابي .. ساعة الحائط .. أوراق العملة .. الحديقة .. ثوب أمي .. شعر أبي .. الهاتف .. متاجر وسط البلد .. الشاي .. القهوة .. السجائر .. الجعران .. معطف الدكتور (داود) ..

أصفر ..

و أنا جالس في غرفتي وحيدا أسترجع خيط الأحداق و أفكر .. ما الشيء الذي جعلني أرى العالم اصفر ..؟!
أنا لا أعرف .. فهل تعرف أنت ؟

***

أخضر ..

" الواقع أنني أكره عملي ها هنا .. الواقع أنني لا أجد جدوى لحياتي ذاتها .. الواقع أن الشيء الوحيد الذي يدفعني للاستمرار هو .. الدكتورة (منال) "

****

السبت ١٥ مايو ..

الفائدة الوحيدة للملل هي أنك تجد الوقت الكافي لكتابة مذكراتك .. صحيح أنه لا يوجد شيء ذو قيمة في هذه المذكرات ، لكنها مذكراتي أنا و لا تعني أحدا سواي .. لا أحتاج لأن أكون رائد فضاء لأحظى بشرف كتابة مذكراتي !

أنا عامل نظافة بالمناسبة و هذا قد يدفعك لترك القصة و الانتقال إلى القصة التالية ، لكن من سيتجاوزون امتعاضهم من عملي هذا ، و يواصلون القراءة ، قد يكتشفون أن حتى عمال النظافة قد يوجد لديهم ما يقولونه في بعض الأحيان ..

هذا هو ثاني أيام عملي ف مؤسسة (اسم لاتيني معقد لا يمكنني نطقه أو حتى كتابته !) التي تدير سلسلة من الأبحاث العلمية عن أشياء لا يعرف إلا الله الغرض منها بالضبط .. أحدهم يقضي حياته أمام فأر أبيض في قفص و آخر يحقن الفواكه بعقاقير عجيبة ، و هناك من ينظر طيلة اليوم على شريحة ضئيلة عبر الميكروسكوب ، ليدون ملاحظاته كل نصف ساعة ..

و هناك الدكتورة (منال) ..

حين عرض علي قريبي – و هو عامل نظافة هو الآخر – العمل هنا ، لم أكن متحمسا على الإطلاق ، لكني كنت بحاجة إلى المال .. أي مال بأي طريقة .. و لأنني لا أجيد السرقة أو النصب و مصاب بمرض نادر في العضلات يمنعني من العمل كبائع متجول ، بدا أن العمل كعامل نظافة هو الحل الأمثل لي ..

أنقل القمامة من سلة المهملات إلى العربة التي أجرها أمامي طيلة اليوم ، ثم أفرغ العلبة في أنبوب خاص في قبو المبنى .. هذا هو كل شيء ، و الأمر لا يحتاج لمواهب خاصة كما لاحظت .. المشكلة هي أنني متعلم – حصلت على الإعدادية – و عيب التعلم الوحيد هو أن نفسك قد تعف عن ممارسة الأعمال التي يؤديها الجهلة بنفس راضية مطمئنة ..

لكن هناك الدكتورة (منال) ..

أعشق القراءة منذ صغري ، لكنني من أسرة لا تسمح إمكانياتها المادية بابتياع الكتب إلا المستعمل منها و إن نقصت صفحاته ، و ها هي المشكلة تتكرر .. أنا هنا أقضي طلية اليوم ، في لا شيء تقريبا ، و لا يوجد أمامي ما يصلح للقراءة سوى تلك المراجع الضخمة ، ذات الأغلفة المصقولة ، و الكلمات اللاتينية التي تحتاج إلى أكثر من شهادتي الإعدادية لفك طلاسمها .. الحل إذن .. أن أكتب مذكراتي ..

وسيلة لا بأس بها لقتل الوقت ، و إن كان علي تحمل نظرات السخرية من زملائي و العاملين هنا ..

عامل نظافة يكتب مذكراته .. يا للهول !!

لكن هناك الدكتورة (منال) ..

إنها .. إنها .. زهرة هذا المكان .. النسمة الوحيدة التي تمر عبر الممرات الكئيبة لهذه المؤسسة .. الوحيدة التي أقنعتني بأن العمل هنا ا بأس به ، إن كنت سأصيب ابتسامة منها كل يوم .. و أنت لم تر ابتسامة الدكتورة (منال) !

صدقني .. إنها تستحق ..

لكن ما الذي تفعله الدكتورة (منال) بالضبط ؟!

الواقع أن هذا يستحق بعض الاهتمام ..

****

<u>الأحد ١٦ مايو ..</u>

أمتع ما يمكن لإنسان فعله هو أن يراقب الدكتورة (منال) و هي تعمل ..

ترتدي المعطف الطبي الأبيض .. تدخل إلى تلك المحمية الطبيعية التي صممتها المؤسسة خصيصا لها لتمارس تجاربها على النباتات .... و موسيقى هادئة تنبعث من جهاز التسجيل .... بالنسبة لهم – من يديرون المؤسسة – لكل نبات داخل المحمية ، اسم علمي منمق ، و ملف بالتجارب التي تمت على هذا لنبات ، و الدكتورة (منال) ذاتها تمثل ملفا هي الأخرى ، يسجل فيه كم ما حققته لمؤسسة حتى الآن من نتائج ... هذا بالنسبة لهم ...

بالنسبة لي كانت الدكتورة (منال) تبدو كسندريلا وسط الزهور و أوراق النباتات ، كأنما تصنع معهم ، لوحة طبيعية متحركة ، هي بطلتها الوحيدة ..

كانت الدكتورة (منال) دائما ما ترحب بي داخل محميتها ، و كثيرا ما تركتني أراقبها و هي تحمل أصيص زرع ، لتضعه على جهاز عجيب ، يخرج شرائط ورق عليها خطوط متموجة ..

أي أحمق لن يفهم معنى هذه الخطوط لكن الدكتورة (منال) شرحت لي ... إنها تعبر عن إحساس النبات ، فهي تنساب بنعومة حيت تتوفر للنباتات البيئة المثلى ، بينما تتلوى بجنون ، إذا قطعت أحد أوراق النبات و هو على الجهاز ...

النبات يشعر و يتألم ... و ربما يحب !

هكذا قالت لي الدكتور (منال) ..

****

<u>الاثنين ... ١٧ مايو ....</u>

اليوم أخبرتني الدكتور (منال) أنهم عثروا على فصيلة نادرة من النباتات .. على بذور هذه الفصيلة بالتحديد .... سبع بذور لمزيد من الدقة ..

أخبرتني الدكتورة (منال) أن البذرة الواحدة تساوي ثروة ، لكنها إن نجحت في زرع أحد هذه البذور في البيئة المناسبة ، و قامت بإجراء تجاربها على النبات ذاته ، فقد تحقق السبق العلم الذي طالما سعت إليه ....

ساعدتها بنفسي على إعداد أصيص الزرع ، و دفنا البذرة الأولى ف السماد الصناعي الذي يحتوي على كل ما يشتهيه النبات من مواد و أملاح ... لم يكن الأمر شاقا بالطبع و لو كان ، فالدكتورة (منال) تستحق ..

أخبرتني الدكتورة (منال) أن الأمر سيستغرق وقتا طويلا ، و هذا معتاد .. و أنا أثق في كل ما تقوله الدكتورة (منال) ...

كل ما علي فعله هو أن أدعو الله أن ينبت هذا النبات سريعا من أجل الدكتورة (منال) ...

و هذا ما سأفعله !

****

<u>الثلاثاء ... ١٨ مايو ...</u>

لكم هي متفانية ... لكم هي رائعة ...

أراها ك يوم – الدكتورة (منال) و لا أحد سواها !- تعتني بأصيص النبات الجديد ، كأنه طفلها الرضيع ... أحيانا أشعر أن هذه البذور داخل الأصيص هي أول رابط حقيقي بيننا ... كأنها ابننا الذي لن يولد !

نجلس يوميا نراقب الأصيص لساعات طويلة ، منتظرين تلك اللحظة الجهنمية ، التي سيخرج فيها البرعم الأخضر إلى السماء ، ليعلن عن وجوده ... لكن الانتظار سيطول و نحن نعرف هذا ...

رأيتها و قد استبد بها الفضول ، تضع أصيص النبات في الجهاز الذي يسجل الموجات التي يصدرها النبات ، و قالت :

- ***على الأقل سنعرف إن كانت البذرة حية ...***

لكن شرائط الورق التي خرجت من الجهاز ، كانت تحمل خطا مستقيما طولا ، كالذي يصدره جهاز رسم القلب حين تحين لحظة النهاية ... لقد رأيت جهاز رسم القلب حين كان متصلا بوالدتي – يرحمها الله – و أعرف معنى هذا الخط السخيف جيدا ..

بدا الإحباط على الدكتورة (منال) ، و قالت :

- ***سأتركه لغد ، ثم سأجرب مع بذرة أخرى ....***

حاولت مواساتها ، لكنني و كما قلت من قبل ، ا أملك لها سوى الدعاء .. و هذا ما سأفعله مجددا ....

<u>الأربعاء ....١٩ مايو ...</u>

لا زلنا ننتظر ...

<u>الخميس ... ٢٠ مايو ....</u>

قررت الدكتورة (منال) الإبقاء على الأصيص الأول ، لكنها وضعت البذرة الثانية ، في أصيص جديد ، و لا زلنا ننتظر ...

<u>الجمعة ... ٢١ مايو ...</u>

متى يأتي الغد ؟!!

السبت ... ٢٢ مايو ...

مزيد من الإحباط !

الأحد .... ٢٣ مايو ....

لم أتوقع أنا أو الدكتورة (منال) تلك المفاجأة المذهلة ...!

كنا أول من وصل إلى المؤسسة ، كعادتنا منذ فترة ، لنسرع سويا إلى المحمية الطبيعية على أمل مستمر في جديد ... أي جديد ...

لكننا هذه المرة حين وصلنا كان المشهد أمامنا أشبه بمعجزة ....

كان أصيص الزرع أمامنا و قد نما ذلك النبات النادر بصورة جهنمية ، في صورة مجموعة ضخمة من السيقان الخضراء الملتفة حول نفسها بتشكيل عجيب معقد ، و بارتفاع لا يمكن حدوثه في ليلة واحدة ....

ليس هذا فحسب ، فأحد الأصيصين كان على جهاز تسجيل الموجات ، الذي أخذ يقذف في وجوهنا شرائط ورق تحمل تموجات عنيفة ، لم أر مثلها من قبل ...
لا يمكنني أن أصف لك كيف كانت حالة الدكتورة (منال) لكني سأتجاوز ذهولها من هذا الذي حدث ، و سأنقل لك اللحظة التي أمسكت فيها شرائط الورق ، لتتفحص التموجات باهتمام علمي يليق بها تماما ...

استغرقت وقتا طويلا ، قبل أن تقول :
- ***لست أفهم ...***

تجرأت أنا لأسأل :
- ***هل تألم هذا النبات ؟ أعن ربما لا تناسبه البيئة هنا ...***

لكنها هزت رأسها لتقول :
- ***لا ... هذه التموجات طبيعية ، لكنها ، مضخمة ، كأن غابة كاملة التي تصدرها ...***

و عادت لتفحص الأوراق ، مكررة :
- ***لست أفهم ....***

لذت بالصمت لأسمح لها بالتركيز ، و حين طال صمتها قررت أن أتركها لأواصل عملي – إنني لست المسؤول عن مراقبتها هنا – لكني قبل أن أترك المكان ، التفتت إلي الدكتور (منال) لتسأل :
- ***لحظة ... أنا لم أضع هذا الأصيص في الجهاز أمس ... كيف انتقل إذن ؟!!***

الاثنين ٢٤ مايو ...

الدكتورة (منال) تغيرت ...

لم تعد تلحظ وجودي ، بل أصبحت لا تلاحظ أ شيء يحدث حولها ، و قد انصب اهتمامها كله على نباتها النادر ، الذي بدأت أمقته دون سبب مفهوم ...

إنه ... إنه ينافسني على الدكتورة (منال) !

اليوم مررت عليها لمتابعة آخر التطورات ، حين حدث ذلك الشيء العجيب الذي أثار هلعي ...

كانت الدكتورة (منال) تمسك بأحد أوراق النبات تفحصها بعدسة مكبرة ، و كنت أ،ا عند الباب في هذه اللحظة ، أناديها قائلا :

- ***أي خدمة يا الدكتورة (منال) ؟***

و يبدو أنها كانت مستغرقة تماما فيما تفعله ، إذ انتفضت على صوتي ، و التفتت لي بحدة و هي لا تزال تمسك بورقة النبات ، لتقطعها دون قصد .... دون قصد لكن النبات لم يقدر هذا ...

فجأة تلوت روع النبات كله بحركة أفعوانية عجيبة ، و أخذ ينفث ذلك البخار الخضر في سماء الغرفة ....

أخضر .. أخضر .. أخضر .. لثوان استحال لون المكان كله على الأخضر ...

صوت الهسيس الصادر عن النبات امتزج بصرخة الدكتورة (منال) المذعورة ، فلم أشعر بنفسي إلا و أنا أقفز ف اليوم الأخضر أمامي ، أنقذها من أي شيء قد يجرؤ على التعرض لها ...

كانت الرؤية منعدمة أمامي ، لكن العجيب أن هذا البخار كان بلا رائحة على الإطلاق كأنه مجرد صبغة لهواء ، لكني تجاهلت هذه الحقيقة حينها و أخذت أتحسس طريقي حتى اصطدمت بذرا الدكتورة (منال) لأقبض عليها بقوة ، هاتفا :

- ***لا تقلقي .... سأخرجك من هذا ...***

لكن يدا حديدية قبضت على عنقي بغتة لتخرسني ، و لتبدأ في اعتصاره بقوة لا ترحم !!

و كرد فعل طبيعي ازدادت قوة قبضتي التي تقبض على ذراع الدكتورة (منال) فارتفع صوت صراخها أكثر ، و قد أصابنا هذا اللون الأخضر – اللعين – بالعمى تماما ...كنت أختنق و بدا و كأن حنجرتي ستتهم في أية لحظة ، فتركت ذراع الدكتورة (منال) ، لأحاول إبعاد تلك اليد المخيفة عن عنقي لكن دون جدوى ...

أختنق ببطء و اللون الأخضر البهيج يغمرني من كل صوب ...!

يتحول اللون الأخضر إلى أسود و قد غاب الهواء عن جسدي ، و تتراخى ذراعي جواري باستسلام و صراخ الدكتورة (منال) يتردد في أذني و ... و ...

و ما حدث بعد ذلك رواه لي قريبي الذي أحضرني إلى هنا ...

صراخ الدكتورة (منال) اجتذب الجمع إلى المحمية ، حيث تعاونوا على إخراجنا حيين – حسن الحظ – لكن هذا ليس كل شيء ....

شيئان أخبرني بهما قريبي أثارا ذعري و إلى أقصى حد ....

أولا .. أنه لم يكن هناك دخان حين دخلوا المحمية ... لم ر أحد هذا الدخان !!

ثانيا .. أن اليد التي كانت تقبض على عنقي ، و التي كادت تقتلني ، كانت يد الدكتورة (منال) ذاتها !!

الثلاثاء ...٢٥ مايو ....

لم أستطع الذهاب إلى العمل ، إذ لا زلت تحت تأثير صدمة الأمس ....

ترى أين هي الدكتورة (منال) الآن ؟!!

الأربعاء ... ٢٦ مايو ...

الدكتورة (منال) لم تأت إلى العمل اليوم ...

الخميس ... ٢٧ مايو ...

لقد بدأت أقلق على الدكتورة (منال) .. إنها لم تأت اليوم أيضا ....

الثلاثاء ... ٢ يونيو ...

لقد اختفت الدكتورة (منال) ...!

قضيت الأيام الماضية في انتظارها ثم بدأت أبحث عنها ، حتى إنني تمكنت – بوسيلة ما – من الحول على عنوان منزلها ، و ذهبت إلى هناك لأطمئن عليها – و إن كان هذا يس من حق في الواقع – لكني م أجدها هناك كذلك ....

أين ذهبت الدكتورة (منال) ؟؟!!

الجمعة ... ٦ يوليو ...

لم أعد منتظما في كتابة مذكراتي لكن ما حدث اليوم يستحق التسجيل حقا ...

السابعة مساءا كنت أتابع ذلك البرنامج التلفزيوني الشهير ، حين سمعت طرقات على باب منزلي ، فنهضت متململا لأفتح الباب ، و أنا أدعو الله ألا يكون الحماس قد استبد برفاقي ، و دفعهم للمجيء على هنا ، لكني حين فتحت الباب أطلت علي الدكتورة (منال) بابتسامتها الهادئة ، لتصيبني بحالة من الذهول عجزت معها عن النطق ....

كانت هي من نطقت لتقول :

- ***مرحبا ....***
- ***أين كنت ؟! ... بحثت عنك في كل مكان ... أعني ... لقد قلت و ...***
- ***ارتد ملابسك و ها بنا ...***
- ***إلى أين ؟!!***
- ***إلى هناك .... إلى المحمية ...***

سأتجاوز كل التفاصيل التي لا داع لها و سأقفز إلى اللحظة التي دخلنا فيها إلى المحمية لنجد نباتنا النادر و قد استطال حتى كاد يلامس السقف ... لست أفهم شيئا في النباتات ، لكن نمو هذا النبات غير طبيعي و أنا أثق في هذا ...

- ***هذا النبات غير طبيعي ...***

قالتها الدكتورة (منال) و كنت أعرف هذا مسبقا ، ثم واصلت :

- ***الدخان الأخضر الذي تنفسناه ... لقد كان ذا تأثير غير طبيعي ... قد قضيت الأيام الماضية في دراسة تأثير هذا الدخان علينا ...***

سألتها بحذر :

- ***و هل توصلت إلى شيء محدد ؟!***
- ***تحسس نبض يدك رجاء ..***
- ***لماذا ؟!***

- ***لأنك ن تشعر بشيء ...!***
- ***ماذا ؟!!!***

و تحسست يدي بدهشة بحثا عن أي نبض ، فتحولت دهشتي إلى ذعر حقيقي حين شعرت بيدي الباردة ميتة تماما ، لا نبض فيها و لا حياة ...

ألقت إلي الدكتورة (منال) بسماعة طبية قائلة بذات الشرود :
- ***خذ هذه لو أردت التأكد ، لكنني سأخبرك بالنتيجة مسبقا .. لا نبض .. قلبك توقف عن الخفقان ... مثل قلب بالضبط ...***

شعرت بالسخف مما أسه ، كن يدي الباردة ظلت صامتة ، ا تنقل إلى أناملي أي نبض ، فجربت أن أضع السماعة الطبية على صدري ، و بعد إصغاء استمر لبضع دقائق .. تأكدت لي حقيقة أن قلبي متوقف عن العمل تماما ..!!

خط طويل سخيف ... هذا هو ما سيسجله جهاز رسم القلب لو وصوه إلى صدري الآن ....

سألت و الأفكار تثور في رأسي :
- ***و ما الذي يعنيه هذا ؟! .. هل .. هل متنا ؟!!***

لكن إجابتها جاءت أكثر غرابة :
- ***لا ... لم نمت ... بل نتحول ...***

<u>السبت .... ٧ يوليو ..</u>

من الآن علي الانتظام في تسجيل مذكراتي لتسجيل أي تغيرات تطرأ على جسدي كما طلبت مني الدكتورة (منال) ....

عادت الدكتورة (منال) إلى العمل ، لتواصل دراستها على ذلك النبات الشيطاني ، المستمر في النمو ، حتى كاد يحتل المحمية الطبيعية كلها ، بسيقانه الملتوية ، و أوراقه التي تصدر ذلك الغاز الأخضر إذ قطعت ....

يجب أن نفهم ما حدث لنا .... يجب ...

حين عدت إلى المنزل ، فحصت جسدي أمام المرآة بحثا عن أي تغيرات ، فلم أجد شيئا غير طبيعي ....

لا زلت نحيفا كئيب الملامح ، و لا زالت عظامي البارزة تؤكد على فقري المدقع ...

فقط لا قلب ينبض رغم استحالة هذا طبيا أو علميا كما أكدت لي الدكتورة (منال) ....

لكننا قررنا الاحتفاظ بهذا كله سرا ، حتى تستطيع الدكتورة (منال) كشف طبيعة ما أصابنا ...

ترى هل ستستطيع الدكتورة (منال) فعل هذا حقا ؟!!

<u>الأحد .... ٨ يوليو ..</u>

على الأقل أصبح هناك رابط حقيقي بيني و بين الدكتورة (منال) ....

حالتنا العجيبة أزالت حواجز كثيرة بيننا ، و أصبحت أقضي جم وقتي معها في المحمية الطبيعية ، حتى بعد انتهاء الدوام الرسمي ....

لاحظنا أننا فقدنا شهيتنا للطعام ، كأنما أبح جسدنا الميت يأبى أي طعام ... كذلك تقلصت ساعات نومنا إلى ساعتين فقط و يبدو أننا في طريقنا للإصابة بالأرق الدائم ...

الدكتورة (منال) تحولت إلى آلة رصد ، ترقب كل ما يفعله النبات ، و تدرس تلك التموجات المتضخمة التي يصدرها ، على أمل أن تحمل لنا أي تفسير ..

على كل حال لم يحمل لنا اليوم أي جديد ...

فقط لاحظت أنني حين جرحت يدي بطريق الخطأ ، لم أنزف أي دم ...

سؤال آخر ننتظر أن يجيبنا عليه هذا النبات النادر ...

فهل يفعل ؟!!!

<u>الاثنين ... ٩ يوليو ..</u>

لم نعد ننام و أصبح الإرهاق هو السمة الغالبة علي و على الدكتورة (منال) ....

المسؤولون عن المؤسسة لاحظوا وضعنا و لم يبدوا أي اعتراض ، و لا بد أنهم أعدوا ملفا جديدا عني يسجلون فيه ملاحظات مبهرة ...

لكن ملف النبات بحد ذاته ظل يحمل علامات استفهام لا إجابات لها ، حتى قررت الدكتورة (منال) إجراء تجربة عجيبة لم أفهمها بالضبط ، لكنني سأنقل لك ما قالته لي حرفيا :

- ***سنحاول تحويل هذه الموجات التي يصدرها النبات إلى صورة أخرى من صور الطاقة ، علنا نفهم ما تعنيه ...***

و عملا بهذه القاعدة أحضرت الدكتورة (منال) مجموعة عجيبة من الأجهزة أخذت توصلها بالجهاز الذي يسجل موجات النبات ، و أخذت أنا أراقب هذا كله منتظرا أي نتيجة ...

على كل حال مر اليوم سريعا دون أن نظفر بهذه النتيجة المرجوة ...

و ما زلنا ننتظر ...

<u>الثلاثاء .....١٠ يوليو ..</u>

يجب أن أسجل كل ما حدث بسرعة فلا وقت أملكه ...

اليوم تمكنت الدكتورة(منال) من حل لغز هذه التموجات ، فلقد استخدمت .. الـ ... لا وقت ... بسرعة ... الكمبيوتر فعلها و برامج الترجمة حولت لنا ما يقوله النبات إلى ...

لا وقت ... لا وقت ...

الدكتورة (منال) أولت الأجهزة الجديدة بالكمبيوتر الذي قرأت على شاشته هذه الكلمات الرهيبة :

((حان وقت عودتنا ... هناك أجساد بشرية تصلح لعملية الانتقال ...))

هذه الكلمات كان يصدرها لنبات في صورة الموجات المتضخمة ، و هذا يفسر كل شيء ....

أجسادنا ميتة لأنها لم تعد ملكنا ، بل ملكهم ....

من هم ؟!! .. لا أعرف و ن أجد الوقت لأفعل ، الدكتورة (منال) وجدت حلا جذريا للمشكلة كلها ....

إنها تشعل النار الآن في المحمية بعد أن حبستنا فيها ... حاولت منعها لكن ...

ربااااه ..

النبات .... إنه ....

....

***

<u>الملف (١٠١٩) قسم الأبحاث العلمية ...</u>

إلى هنا تنتهي المذكرات التي عثرنا عليها بد أن احترقت المحمية الطبيعية ، و لولاها لما فهمنا شيئا مما حدث ...

الدكتورة (منال) و عامل النظافة المسكين – الذي ا أفهم كيف كان يكتب مذكراته هذه – كانا الضحيتين الوحيدتين للحريق ....

يبدو أن الدكتورة (منال) كانت تحاول التخلص من النبات ، لكنها فشلت !

النبات لم يحترق ، كأن النار لا تؤثر فيه بالمرة ، و هكذا تمكنا من دراسته لنفهم ما حدث ... و ما سيحدث ...

النبات كان يصدر غازا خاصا يؤثر على الأعصاب ، و يصيب من يتعرض له بالجنون ، و هذا يعني أننا نجحنا ..

هذا هو السلاح البيولوجي الكامل كما أردنا ، و لولا أننا قررنا التضحية بالدكتورة (منال) لما تأكدنا من فاعليته ...

يمكننا الآن إغلاق الملف ...

و إعلان أن التجربة نجحت ...

د. عادل فهمي

***

أزرق ..

يطلقون عليها الزرقة الرمية ..

الاسم نفسه مثير للتوجس .. لكنها علامة مهمة جدا في الطب الشرعي .. أنها تحدد الوضع الذي كانت عليه الجثة في الساعات القليلة التالية لوفاة ، و لكم من منتحر وجدوا الزرقة الرمية على ظهره ، مما جعلهم يدركون أنه قتل قتلا على الأرض ، ثم علقه قاتله على المشنقة ليخدع رجال الشرطة .... إن القصص المشابهة كثيرة جدا ...

يطلقون عليها الزرقة الرمية ..

و أنا أحب اللون الأزرق ، و أكره أن يرتبط بشيء رهيب مثل الموت .. لكن – للأسف – يظل لون الجثث الباردة و الأطراف المرشحة للبتر أزرق .. أردنا هذا أو لم نرد ..

****

كنت طالبا فقيرا في تلك المدينة الصاخبة العجوز .. لا تسأل عن الظروف و لا الضغوط التي جعلتني أعمل في المشرحة .. نحن لا نختار الوظائف التي تعرض علينا و قد كنت في حاجة ماسة للمال ..

كان صاحب المشرحة و مديرها و رئيس مجلس إدارتها هو عم (عثمان) .. و هو رجل نوبي ظريف له جلد يشبه الباذنجان الأسود ، و كان من أسرة اعتادت العمل هنا منذ دهور .. في كل عام تطرح المستشفى مناقصة لمن يتولى أمور المشرحة لأعلى إيجار ، فكان هو يفوز بها في كل مرة ، و من يمنعه من ذلك يكون هو الجثة التالية الراقدة في هذه المشرحة ....

و السبب ؟ .. من قال إن عمل المشرحة ليس مربحا ؟ .. إنه حانوتي يكسب الكثير ، و دخول المتوفين في المستشفى إجباري إلى مشرحته هو .. لا أحد يهرب .. عندها يعامل أهل المتوفى كما ينبغي .. أسعار سياحية لا تسمع عنها إلا في أفخم فنادق البحر الأحمر .. و الناس مضطرة إلى الدفع لأنهم يريدون إنهاء عذابهم سريعا ..

كنت أساعده في عمله و بالطبع أنال جزءا من الغنيمة .. لم أكن أتلقى راتبا ، لكن النسب التي كان يمنحني إياها كانت تكفيني لأسدد مصروفاتي و أرسل مائتين أو ثلاثة إلى أسرتي في القرية .. طبعا لم يكن أحد في بلدتي يعرف طبيعة عملي . كنت أزعم لهم أنني أنسخ المستندات في مكتب ما .. لو عرفت أمي بمصدر المال الذي أرسله لتشاءمت و أبت أن تمسسه .. و هو تفكير قاصر طبعا لأن العمل هو العمل .. لا بد من بائس ما يغطس في المجاري لتسليكها ، و لا بد من بائس ما يصطاد الكلاب المصابة بالسعار و الجرب ، و لا بد من بائس ما يقوم بربط فكوك الموتى بالشاش .. هذه أشياء كصلاة الجنازة :إن قام بها واحد سقطت عن الجميع ، و إن لم يقم لها أحد أثم الجميع ..

على أن لهذه المهنة نفعا لا شك فيه .. إنها تعلمك التواضع .. تجعلك متدينا بحق ما لم تكن لصا أصيلا مثل عم (عثمان) .. أنت هنا تعيش في المنطقة الفاصلة بين الموت و الحياة ، و ك زبائنك كانوا يمزحون و يدخنون و يدبرون المكائد منذ أربع أو خمس ساعات ... الآن هم أشياء رهيبة ترقد بانتظار من يريحها الراحة الأخيرة .. إنها لعبة كراس موسيقية .. اليوم أنت واقف هنا و هم رقود ، غدا أنت راقد على هذه المنضدة و هناك من يقف ..

لهذا كنت أكثر من قراءة القرءان .. و أحافظ على ميقات الصلاة بدقة .. سوف أعترف بأن هذه الفترة هي أخصب فترات حياتي من الناحية الدينية ..

أعتقد أن الأمر يتعلق بدرجة معينة من الشفافية .. ثمة حاسة سابعة أو ثامنة قد استيقظت في أعماقي مع هذه التجربة الغريبة .. التدين .. معايشة الموت .. العزلة .. الجهد الصادق .. و في الأيام الأخيرة تكررت معي تلك

الحوادث الغامضة التي تمر بنا من حين لآخر .. تفكر في صديق فتجده أمامك .. تشعر بانقباض فتحدث كارثة .. الخ .. لكني لم أحاول أن أتوقف كثيرا مع هذه الأحداث ..

****

بدأ كل شيء أمس ..

في التاسعة مساء دخلت المحفة إلى المكان .. حينما تمارس أية مهنة لها علاقة بالطب أو الموت ، لا بد أن تميز أذناك صوت المحفة و هي بعد في الممر الخارجي .. و كنت وحدي في تلك الليلة ..

كان الراقد على المحفة رجلا في الخمسين من العمر .. يبدو أنه ليس معدما ..

و قال لي أحد الرجلين الذين جاءا به ، و هما رجلان لم أرهما قط هنا :

- *" وجدوه ميتا في الزقاق المجاور .. لا يبدو أن هناك جريمة في الأمر .. لا أوراق .. إنه ناقص الأهلية .."*

و قال آخر و هو يجفف عرقه :

- *" ربما كانت أسرته تفتش عنه الآن .. و ربما لم تكن له أسرة .. لا نعرف .."*

رفعت الملاءة و تأملت وجهه ثم سألت في حيرة :

- *" ما سر هذا اللون الأزرق الذي تلون به جلده بالكامل ؟"*

قال أحدهما بلا مبالاة هو أيضا :

- *" ربما كان يشتغل في الأزرق "*

قالها دون أن يضحك ، و كذا لم يضحك أحد .. هناك دعابات تقال لكنها لا تطالب بجمهور أو حق أداء علني .. تقال لمجرد إخراج امللل أو الضغط العصبي .. على كل حال لا بد أن عيني ليستا على ما يرام .. فأنا أشعر أن المسعفين أيضا لونهما أزرق .. معنى هذا أنني أخرف ...

و هكذا تسلمت هديتهما الرهيبة ، ففتحت درج الثلاجة الكبير و وضعت فيها ذلك البائس ..

لم يكن الطب دراستي لكني قرأت كل ما وقع في يدي من مواضيع طبية كتبت بالعربية .. هناك حالات معينة من الموت بالغازات تسبب هذا اللون الأزرق .. أول أكسد الكربون يجعل لون القتيل أحمر لذا يسمونه (الموت الأحمر) .. لن أعرف الإجابة لكن دعني أؤكد لك أن زرقة هذا المتوفى كانت تختلف عن زرقة الموتى التي أعرفها .. كأن هناك من ألقاه في دلو به طلاء أزرق بمجرد وفاته ..

بعد ما خلا المكان عدت إلى جلستي السابقة .. كوب الشاي و لفافة التبغ .. أعترف أنني كنت أدخن من حين لآخر .. و هي خطيئة بالنسبة لمن هو مثلي في حاجة لكل ميم ، لكني كنت أسمح نفسي بها من وقت لآخر لأعتقد أنني (أمرح) .. جوار لفافة التبغ الكتاب الذي كنت أدرس فيه .. أنا طاب في كلية الآداب برغم كل شيء ..

حاولت أن أركز فيما أقرأ لبعض الوقت ، لكن شعورا غريبا من التوتر استبد بي .. أعرف هذا التوتر غير القابل للتفسير و الذي يحدث أحيانا و يمضي أحيانا .. خوف ؟ .. لا .. لقد كفت هذه المهنة عن أن تثير فيَ أي شيء سوى الملل ...

خيل إلي أنني أسمع صوتا ما من داخل الثلاجة .. هذا أيضا شيء معتاد في المهنة .. لا بد حينما تكون وحيدا ليلا أن تسمع جلبة من حيث يرقد الموتى .. ظاهرة ينتصب لها شعر رأسك في البداية .. ثم تتعلم مرة بعد مرة أن المصدر الوحيد للصوت هو عقلك المكدود ...

لكني قررت برغم كل شيء أن أنهض متثاقلا .. اتجهت إلى الثلاجة و فتحت درجها العملاق .. كان المتوفى حيث هو لم يتحرك .. أزحت الملاءة و أعدت النظر إلى وجهه .. بالفعل تتزايد الزرقة أكثر فأكثر .. لا بد من تفسير لهذه الظاهرة .. إنه رجل أشيب الشعر له ملامح نبيلة .. أنفه معقوف كمنقار النسر و له شفتان رفيعتان حازمتان ..

واضح أنه لم يتعذب كثيرا أثناء احتضاره ..

قرأت الشهادتين و أعدت غلق الدرج و عدت إلى منضدة الدراسة ..

بعد قليل سمعت صخبا .. أعرف هذا النوع من الضوضاء ..

كان القادم هو (مدير أعمالي) .. عم (عثمان) جاء ليمضي بعض الوقت هنا و يتفقد الأحول ..

لم يكن وحده .. كان معه رجلان .. و قد حياني بطريقته النوبية الظريفة ثم اقتادهما إلى الحجرة الجانبية الصغيرة التي كانت حماما ثم جعلها مكتبا له ، و هو أغرب مكتب يمكن تخيله .. مكتب له دوش يتدلى من السقف و ماسورة تنحدر على السيراميك .. ثم ينتهي كل هذا فجأة .. و كان في المكان مكتب عتيق صدئ من طراز (إيديال) و ثلاثة مقاعد خشبية من طراز مقاعد المقاهي .. لهذا كان يطلق على المكان ببساطة اسم (الدورة) ..

دخلت إلى حيث جلس مع الرجلين و انتشر الدخان في هواء الغرفة الضيقة ، فنقلت له خبر القادم الغريب .. هز رأسه بمعنى أنه مطمئن لكل شيء ما دمت موجودا ..

كان يتكلم بينما أنا أنظر إلى الرجلين ..

هذا الوجه ..

الرجل الذي يلبس قميصا أبيض .. هذه الملامح الوقور .. هذا الأنف المعقوف الشبيه بمنقار النسر .. هذا الشعر الأشيب ..

أين رأيت هذه الملامح من قبل ؟

****

بعد قليل خرج عم (عثمان) من الغرفة ليرى ما لدي ..

كنت أجلس في تلك القاعة رديئة التهوية و الإضاءة أطالع كتبي عندما دخل علي ، فسألته عن هذين القادمين معه .. قال و هو يصلح عمامته :

- *"صديقان .."*

ثم اتجه إلى الثلاجة .. ففتحها .. و سمعته يشهق ..

نظرت إلى حيث وقف و أنا أتوقع منه تعلقا عن اللون الأزرق ، لكنه قال في حيرة :

- *" أين وضعته ؟"*

دنوت منه أكثر فوجدت أن الدرج خال .. نعم .. خال تماما !

صحت في هلع و غباء :

- *" كان موجودا ..أقسم بالله أنه موجود .. أنا لا أفهم .."*

نظر لي بعينيه التي يكتسي بياضهما باللون الأصفر كطبيعة السود و لم يعلق .. فقط قال لي :

- *" يبدو أنك مرهق .. هل غادر (المرحوم) الثلاجة ؟ .. لا أظن .."*

قلت في جنون :

- *" طبعا لا . أنا لم أفارق المكان .. لم يسرقه أحد .. أنا لا أفهم .. أنا ا أفهم ..!"*

ثم صحت و قد تذكرت :

-" رجل سيارة الإسعاف أحضراه .. سوف يؤكدون لك الأمر .."

قال و هو يغلق الدرج :

- *" إما أن الجثة سرقت منك و أنت جالس هناك كأنك (مقطف) و إما أنك تكذب أو تتخيل .."*
- *" لا هذا و لا ذاك و لا ذاك .."*

في هذه اللحظة ناداه أحد الرجلين فنظر لي بسرعة ثم عاد إلى الغرفة التي كانت حماما فصارت مكتبا ..

كنت أفكر بلا انقطاع ... الرعب الحقيقي هو أن حواسي تخدعني .. أفضل أن يكون الميت قد نهض و فر ، كن لا تقل لي من فضلك إن حواسي تخدعني ..

هكذا ظللت أحك فروة رأسي كالمجانين محاولا أن أفيق .. أفيق من ماذا ؟ .. أفيق من حالة اللاوعي التي تمر بي ..

لا أعرف متى رحل الثلاثة .. لا بد أن عم (عثمان) لم يرد أن يضايقني ثانية .. غدا سيناقش هذه الأمور معي بشكل واضح ...

و أمضيت الوقت أنظر في الكتاب غير عالم كيف يجب أن أفكر ..

هل أصارحك بشيء ؟ .. كانت هذه أسوأ ليلة في حياتي .. لقد مر الوقت ثقيلا و استعدت كل المخاوف القديمة من الموت ..

على أنني في الثانية بد منتصف الليل تذكرت أين رأيت تلك الملامح التي رأيتها على الجثة .. رجل أشيب الشعر له ملامح نبيلة .. أنفه معقوف كمنقار النسر و له شفتان رفيعتان حازمتان .. إن هذا بالذات هو الرجل ذو القميص الأبيض الذي كان مع عم (عثمان) ! .. نعم .. لا شك في هذا ..

لا بد من تفسير هذا .. ه فر الميت من الثلاجة يجلس مع صديقيه ؟ .. هل هو أخو المتوفى التوءم مثلا ؟

المشكلة أنني لو صارحت م (عثمان) بهذا الرأي لأضفت نقطة أخرى إلى سجل خبالي ..

****

في الرابعة صباحا سمعت صوت المحفة .. هذه المرة رأيت مسعفين يدخلان المشرحة و هما يحملان محفة عليها وجه مكسو بملاءة ..

كنت أعرف هذين الرجلين جيدا ، و قد حياني أحدهما و قال :

- *" وجدوه ميتا في الزقاق المجاور .. لا يبدو أن هناك جريمة في الأمر .. لا أوراق .. إنه ناقص الأهلية .."*

و قال الآخر و هو يجفف عرقه :

- *" ربما كانت أسرته تفتش عنه الآن .. و ربما لم تكن له أسرة .. لا نعرف .."*

هذه المحاورة تبدو مألوفة .. دنوت من الجثة و كشفت الوجه و ارتجفت .. لحظة كف قلبي عن الخفقان .. هذه المرة بلا ون أزرق و لا شيء .. مجرد جثة بدو السلام على وجهها . إنه الرجل ذو القميص الأبيض .. الرجل أشيب الشعر بملامحه النبيلة و أنه النسري و شفتيه الرفيعتين ..

لقد مات .. إنه صديق عم (عثمان) .. لا شك في هذا ..

و حينما انصرف المسعفان رحت أكر في معنى هذا كله .. جثة زرقاء تل الساعة التاسعة مساء !\ .. بعد هذا تختفي الجثة .. ثم تصل من جديد غير زرقاء في الرابعة باحا ..

صاحب الجثة بلا شك هو ذلك الرجل الذي كان جالسا في (الدورة) ..

ما معنى هذا ؟

يقولون إن الميت يكون ميتا بالفعل أربعين يوما قبل موعد وفاته الحقيقي .. في هذه اللحظات يجلس مع الناس و يتكلم و هو ا يعلم وه م لا يعلمون أنه ميت في وقت مقترض .. حكيت هذه القصة ذات مرة لعم (عثمان) فضحك ساخرا ، و قال إن هذه خرافات .. عندهم في النوبة يعتقدون أن هذه الفترة نصف يوم .. ثم ماذا ؟ .. لا أذكر كل ما قاله لي ...

الآن لنفترض أن حالة الشفافية التي مررت بها منحتني هذه الموهبة العجيبة .. لقد رأيت الرجل ميتا قبل أن يموت فعلا بسبع ساعات أو أقل .. و كانت العلامة التي منحتها هي أنني رأيته مصبوغا باللون الأزرق .. بعد هذا فارق الرجل الحي رفيقيه و أمضى أمسية مع رفاق آخرين .. أمسية أرهق فيها صحته طبعا و دخن جرعة أكثر من اللازم من المخدرات .. كل أصدقاء عم (عثمان) مدمنو مخدرات بالمناسبة .. هكذا أصابته تلك النوبة القلبية في الزقاق المجاور للمستشفى و وجده أحدهم و أبلغ الإسعاف ..

هل هذا السيناريو ممكن ؟

كنت غارقا ف هذه الخواطر ف الخامسة و النصف صباحا عندما تردد الصوت الرهيب من جديد .. هذه من الليالي الصاخبة إذن ..

على أنني تبت عندما رأيت المسعفين الذين كانا يدفعان المحفة .. إنهما المسعفان اللذان رأيتهما أو مرة .. اللذان أحضرا الجثة الزرقاء ..حقا إنني أحمق .. لماذا لم أهتم كثيرا بلونهما الأزرق الذي لا شك فيه .. ؟ .. هل هما شبحان ؟ .. هل هما ميتان ؟ ...

حاولت ألا أظهر جزعي بينما هما يقفان أمامي بحملهما الرهيب ..

قال أحدهما :

- *" شاب دهمته سيارة مسرعة .. إنها ميتة شنيعة "*

لم أعلق ....

فقط دنوت من المحفة و رفعت طرف الملاءة لأرى صاحب الجثة ..

بالفعل كان اللون الأزرق يغمر ك شيء .. و الآن فقط تذكرت باقي ما قاله عم (عثمان) لي .. قال لي إن هؤلاء الذين يكونون ميتين فعلا و هم لا يعلمون ، يكسبون شفافية خاصة .. إنهم يرون ما لا يراه غيرهم .. يرون أولئك الذين سيموتون مثلهم في الساعات القادمة ..!

الآن أتذكر هذه الكلمات و أفهم لماذا اكتسبت هذه الشفافية ...

إن الوجه الأزرق الراقد على المحفة كان وجهي أنا !

***

نيلي..

الأزرق النيلي .. بداية العالم و نهايته .. هو قبل الأشياء و هو بعد الأشياء ...

يقول (سليمان) و هو يشمر كمي القميص إلى منتصف ذراعيه المفتولين :

- **" أنا لا أتكلم عن الغروب و الشروق .. تلك الأوقات التي يحلو للشعراء أن يتغزلوا في النيل فيها .. أغلب هؤلاء (أفندية) لا يفارقون مقاهيهم في وسط القاهرة .. هؤلاء لا يعرفون أنهم يتكلمون عن اللون الذهبي أو القرمزي .. أنا أتحدث عن لحظة بعينها من النهار .. اللحظة التي يصير فيها النيل أزرق نيليا فعلا كما في الكتب .. كما خلقه الله .. تحدث أنت عن النيل ف الليل .. عندها أنت تتكم عن الأسود .. تحدث عنه عند الغروب .. عندها تتحدث عن الأرجوان .. لكنني أتحدث عن النيل حينما يكتسب هذا اللون الأزرق النيلي الهادئ النادر .. تشعر لحظتها أن هذا هو النيل حقا و قد نزع عنه أقنعة التكلف و الادعاء .."**

كنت أفهم ما يقول على حد ما .. الرسام التأثيري الباريسي الذي لم يكن يرسم محطة (سان لازار) إلا في ساعة معينة من اليوم .. لا قبلها و لا بعدها ، لأنه يبحث عن نوع معين من الإضاءة .. و بعد أن تتلاشى الإضاءة التي يريدها كان يحمل فرشاته و لوحة الرسم و يعود لغرفته في (مونبارناس) .. هل كان (مونيه) أم (مانيه) ؟ .. ما زلت أخلط بين الاسمين ..

كنت أفهم هذا و أفهم سر تعلق المرء باللون الأزرق النيلي الهادئ .. حتى في سحر (الكابالا) اليهودي يرمز هذا اللون لطبقة الرابعة (شسيد = الرحمة) .. أي أنه يرمز إلى الأب .. إلى الحنان .. إلى العدل و الخير و الاتزان الكوني ..

كان (سليمان) يدرس في المدينة ، لكنه كان يصر على أن يعود إلى (كفر الزيات) كل يوم .. و في الساعة المختارة كان يتوجه إلى النيل .. يمشي بضع دقائق على ضفته أو يستقل قاربا يجدف به مطاردا الأزرق النيلي الجميل .. لهذا – و لأن هذه العادة ترافقه منذ الصبا – صارت له كتفان عريضتان تذكرانك بأكتاف المصارعين ، و كان حجم ذراعه جديرا بالتأمل .. لن تكسب أية مشاجرة معه أبدا ..

****

إنها الثالثة عصرا في هذا الوقت من السنة ..

هو يعرف الوقت بالضبط .. و يعرف أن الموعد يختلف في الشتاء ...

كان هذا وقتا ميتا خاملا ... في الصيف تكون الشمس عمودية تماما تجعل الجميع ينفرون من المشي .. ي الشتاء يكون الطلبة و الموظفون قد عادوا لديارهم ..

لا أحد على الكورنيش إلا بعض العشاق من القرى المجاورة .. طلبة غالبا .. ينظرون حولهم في رعب .. هنا يختلف العشاق عن عشاق القاهرة الذين ينظرون لك بوقاحة و تحد . إنهم هنا خائفون مذعورون مستعدون للتفرق في أي لحظة .. و لن يزيد الأمر على بضع جمل تقال بصوت خفيض و سرعة ثم يعود كل منهما داره بحمد الله على نجاته هذه المرة ..

يمشي (سليمان) في ثقة متجها إلى السور .. تلك الفتحة التي اجتازها مئات المرات من قبل .. يعبر إلى الضفة الترابية المنحدرة .. يمشي قليلا إلى أن يقابل (محمد عصر) .. المراكبي العجوز الجالس جوار الشط لا يفق من الحشيش .. العينان الحمراوان المنهكتان الضيقتان .. السحنة المربدة التي تشي بكيف صاحبها .. برغم هذا كان الرجل لطيف المعشر ، و هي تلك الصفة التي نلاحظها في الحشاشين المسنين حيث يجعلهم الحشيش أهدأ طبعا و أقرب للتأمل .

على مسافة مترين يجلس (يوسف) .. رجل في الثلاثين من العمر لا يعرف عنه (سليمان) إلا أنه يصطاد .. يصطاد دائما .. يصطاد للأبد .. القبعة القماشية الممزقة على رأسه و (الغلق) الذي يحوي شيئما ما ، و الصنارة الطويلة المتدلية ي الماء أبدا ... لم يره قط يستخرج سمكة من الماء .. لكنه صار من ضروريات النيل ..

يسأل (محمد عصر) عن الأحوال فيقو هذا إنها (زفت) كالعادة .. و يضحك حتى يشخشخ صدره من فرط ما فيه من بلغم ..

و بحركات الواثق الذي فعلها مئات المرات من قبل ينزع (سليمان) حذاءيه و يلقيهما في القارب الخشبي ، ثم يدفعه ليبتعد مسافة عن الضفة ثم يثب فيه .. يفعلها من دون أن يطلب الإذن من صاحبه .. لقد قضت العادة على الفضول و التساؤلات ، و قد اتفق هؤلاء القوم ضمنا على أن يفعل كل منهم ما يريد دون أن يسأله الآخرون أو يسألهم هو ..

يبتعد القارب ليتوغل في النهر الواسع .. جزر ورد النيل تحيط به يخترقها .. هذه اللحظة بالذات أثيرة إلى نفسه . يحرك المجداف بألفة و ثقة قاصدا تلك البقعة التي يعرفها جيدا .. البقعة التي يرى فيها اللون الأزرق النيلي ..

يجب أن نتوف هنا لنؤكد بعض الحقائق .. لم يكن (سليمان) شاعرا .. و لم يكن يتمتع بثقافة خاصة .. فقط كان النداء يدعوه كل يوم ليرى هذا الأزرق العظيم .. لم يكن يهتم بتحليل مشاعره ، و لا يهتم بفهم ما يدور بخده .. فقط كان يريد أن يترك و شأنه و أن يسبح في هذه الزرقة إلى أن يتبدل اللون .. بالنسبة لي و لك لم يكن يتبل ، لكن عيني (سليمان) الحساستين كانتا تلحظان الفارق .. عندها لا يعود النيل نيله ، إنما هو نيل الآخرين المتظاهرين بالشاعرية .. نيل (الأفندية) كما كان يحلو له أن يدعوه ..

و عندها فقط كان يعود ....

أحيانا كان يتوقف بالقارب عند الضفة الأخرى .. و يخرج من الكيس البلاستيكي كتابا من كتب الجامعة ، و يحاول أن يقرأ شيئا .. كان يدرس الحقوق .. و كان يكره الحقيق .. لكنه كان يحاول بضمير مخلص أن يفعل ما يفترض منه أن يفعله .. و النتيجة : لا شيء .. حروف زائغة و معان لا تستقيم .. سرعان ما تنزلق عيناه فوق الأوراق لتستقرا على الماء .. و لا يدري متى و لا كيف ينغلق الكتاب ليعود إلى الكيس ..

هل كان واقعا في الحب ؟ .. أنا لا أعرف .. لا أحد يعرف .. أراهن على أنه هو نفسه لا يعرف .. إن تك النظرات الخاوية الزائغة أبد ما تكون عن نظرات إنسان يعرف نفسه ..

إذن فيم كان يفكر و هو ينظر للماء ؟ ...

متى بدأت القصة ؟ ... أنا لا أعرف .. هو لا يعرف .. لا أحد يعرف ..

****

الأزرق النيلي .. بداية العالم و نهايته .. هو قبل الأشياء و هو بعد الأشياء ...

تقول (عواطف) و هي تحكم ربط الإيشارب النيلي حول عنقها :

- "قليلا يفهمن ما أتكلم عنه .. أنا أتحدث عن لحظة بعينها من النهار .. اللحظة التي يصير فيها النيل أزرقا نيليا فعلا كما في الكتب .. كما خلقه الله .. تشعر لحظتها أن هذا هو النيل حقا و قد نزع عنه أقنعة التكلف و الادعاء .."

لا تعرف سر هذا النداء الغامض الذي كان يدعوها إلى النيل في هذه الساعة من كل يوم .. إنها تعيش في (كفر الزيات) ، و لم تكن تعاني كثيرا في البحث عن مأمورية ما تدفعها للخروج في هذه الساعة .. إن الوقت حول العصر على كل حال ..

كانت طالبة في الثانوية التجارية ، و لم تكن رائعة الجمال لكنها كانت ممشوقة القوام .. و لو رأيتها و هي تمشي بسمرتها فاردة ظهرها جوار النهر خيل إليك إنها (إيزيس) ذاتها .. و كأنها تفتش عن أشلاء (أوزيريس) المتناثرة هنا و هناك .. هل ترى ثيابها الرخيصة ؟ ... إنها تهيم حبا بهذه الدرجة من الزرقة بالذات ..

كانت ترى ذلك المراكبي العجوز الجالس يدخن و الذي لا يفيق أبدا ، و ذلك الصياد الذي لا يصطاد شيئا أبدا .. ترى بائعة اللب و ذلك الصبي الذي يقف بكيزان ذرة لا يبيعها أبدا ..

كلها معالم تحفظها جيدا ، و هي تمشي جوار النهر العظيم ذائبة في الأزرق النيلي ..

هناك من يعاكسها من هؤلاء الفتية الذين تأخروا في العودة من مدارسهم .. تعرفهم من ثيابهم الموحدة و الكتب التي يحملونها .. إنهم لا يفهمون لمشي فتاة وحيدة مثلها إلا معنى واحدا .. و كل احد منهم يتمنى أو يريد أن يبدأ قصة ما ، لكنها لا تبالي بهذه السخافات .. هذا الذباب الذي يمنعها من النظر إلى النيل بلا انقطاع ..

تمشي على النيل و هي تنظر للضفة الأخرى بحنين .. لو استطاعت أن ترمي بنفسها فيه .. لو كانت لها حرية أن تركب قاربا من هذه القوارب كما يفعل ذلك الفتى مفتول العضلات هناك .. لكن مجتمعا كمجتمعها قاس جدا على المرأة و لن يفهمها أحد ..

فقط الرجل يحق له أن يخرج متى شاء .. و يعود متى شاء .. و يستأجر قاربا يجوب به الماء متى أراد .. و لو قرر في لحظة أن ينزع ثيابه ليثب في النيل لما اتهمه أحد بالوقاحة .. الوقاحة الحقيقية هي أن ترى شيئا غريبا في هذا ..

كانت تتنهد .. ثم تكمل جولتها و تعود ..

حقا هي لا تعرف سر ولعها باللون الأزرق النيلي ..

****

الأزرق النيلي .. بداية العالم و نهايته .. هو قبل الأشياء و هو بعد الأشياء ...

يقول (يوسف) و هو يضع في الشص دودة أخرى :

- " أنالا أتكلم عن ذلك النيل الذي تراه في (السيما) .. نيل (أحمد) و (منى) و هذا الهراء .. النيل الذي يدعوني إليه هو النيل عندما يبدو نيلا .. أزر .. نيليا .. جميلا صافيا .."

كان يعرف أنه صياد خائب .. أسوأ صياد عرفه في حياته ..

لكن ما أن يأتي الوقت حتى يجد نفسه يحم ديدانه و صنارته و يضع القبعة القماشية على رأسه و يهرع إلى النيل .. يمر جوار عم (محمد عوف) العجوز الذي لا يفيق من الحشيش و الذي يتظاهر بأنه مراكبي محترف .. اسمه (محمد عرف) .. لقد أخبره بهذا و أخبره أن الحمقى يحسبون اسمه (محمد عصر) .. لا يهم .. عندما تصير في سني لا يهم .. إن القبر لا يبالي باسم العظام الراقدة فيه ..

يقول عم (محمد) :

- " لا يمكنك أن تصطاد (بسارياية) واحدة في هذا المكان و في هذا الوقت .. السمك ا يأكل الآن يا بني .. يجب أن تنتظر الغروب .. و اذهب هناك .."

و يشير بيده الراجفة إلى بقعة ما يحفها ود النيل .، و يمر بها في هذه اللحظة قارب الفتى مفتول العضلات الذي يراه كل يوم ..

كم مرة قالها له العجوز ؟ .. و كم مرة لم يصغ له ؟ ..

إن الصيد آخر شيء يريده .. كل ما يريده – منذ نعومة أظفاره – هو أن يملأ عينيه بالأزرق النيلي .. و الصيد مجرد مبرر واه ..

تلك الفتاة التي تأتي كل يوم تمر به .. معقولة .. ليست جميلة لكن جسمها لا بأس به أبدا .. الغريب أنه م يشع لحظة في حياته بأنه بحاجة إلى امرأة .. هل هو طبيعي ؟ .. لا يعرف ..

****

أنقل هنا كلمات عم (محمد عوف) أو عم (محمد عصر) :

" كان ذلك اليوم يختف .. لم يعد واحد منهم و قدا الليل يدنو ..

لم أفهم ما حد .. إن عيني مريضتان سقيمتان ، كن كان بوسعي أن أرى ذلك الفتى (سليمان) الذي صار زبوني الوحيد يجوب النهر بإصرار ...يدور بالقارب وسط جزر ورد النيل .. ثم يعود بلا نية للهبوط على الضفة ..

في اللحظة ذاتها رأيت أن (يوسف) الصياد لم يجمع حاجياته و يرحل .. لقد كومها جواره و راح يرمق النهر في إصرار غريب .. بعد قليل اقتربت تلك الفتاة التي تأتي هنا كل يوم .. وقفت تنظر للما ..

لقد غربت الشمس الآن و لونت الماء بلون أرجواني غريب ..

لكن الفتاة م تغير وقفتها .. و بائعة اللب لم ترحل .. الكل يقف على ضفة النهر يرمق الماء بإصرار لم أفهمه ..

ثم رأيت القارب يدنو أخرا من الضفة فيترجل منه ذلك الفتى ..

صحت مناديا :

- " تأخرت اليوم .. إن لنا حسابا خاصا .."

لكن لم يقل شيئا .. فقط وقف مع الواقفين ينظر للماء ..

ثم رأيتهم يمسكون بأيدي بعضهم البعض .. م أفهم معنى هذا .. إنهم لا يعرفون بعضهم البعض على هذا الحد .. رأيتهم يخطون بخطى ثابتة نحو الماء ..

لا تقاطعني ! .. أعرف أن كل ما أقوله يحوم حوله الشك .. ستقولون إن الحشيش أطار صوابي .. نعم .. هذا جائز .. لكني أقسم بقبر ابني الأكبر أنني رأيتهم يمشون نحو الماء .. بلا تردد و لا خوف و لا أي شيء .. هل تريد أكثر ؟ .. أقسم ك أنني رأيتهم يمشون فوق الماء ! .. يمشون .. يمشون .. وسط ورد النيل العائم ..

و نظرت حولي فلم أر أحدا أشهده على هذا المنظر الرهيب .. لو كان أحد قريبا ..

رأيتهم الآن و قد وصلوا إلى منتصف النهر ثم بلا أية مقاومة و لا كلمة واحدة رأيتهم يغوصون في الماء .. يغوصون .. لا شيء سوى الفقاقيع .. لا شيء سوى دوامات الماء ..

لقد اكتما الظلام .. و لم أعد أتبين شيئا إلا هذه البقعة السوداء في وسط النيل و التي أقسم لك إنهم كانوا يقفون عليها منذ ثانيتين ..

تقول إنني أخرف ؟ .. لا ألومك كثيرا .. أنا نفسي أشك في عقلي الآن ..

لا عليك .. إنس ما قلت .. انسه ..."

****

لكني لم أنس ما قال ..

لم أنسه قط و ما زلت أعتقد أنها لحظة عابرة من صفاء الوعي جعلته يرى ما رآه .. هؤلاء الفتية كانوا يتلقون نداء النهر منذ أعوام .. فما معنى هذا ؟ .. ثم جاءت اللحظة و سرعان ما اتجهوا إلى الماء ليغوصوا فيه بلا اتفاق مسبق و لا ترتيب ..

التحول ..

هذه هي الكلمة الصحيحة .. لقد تم إعدادهم لشيء كهذا طيلة حياتهم .. كان هذا النداء الذي لا يعرفون كنهه و رافقهم عدة أعوام .. ثم تم التحول و هكذا انتقلوا إلى طور آخر من حياتهم .. طور لا نعرف ما به ..

دودة القز تلتهم أوراق التوت و لا تعرف السبب .. و في لحظة بعينها تبصق خيوط الحرير لتدخل في طور الشرنقة ....

ما اليد الخفية التي اختارت هؤلاء و لأية أغراض ؟ ...

عشرة أعوام أو أكثر من الإعداد .. لماذا ؟ .. هل ليموتوا غرقا أم ليكونوا أبناء النهر ؟

إلام صاروا ؟ .. و لماذا لم يجد أحد جثتهم قط ؟

****

عم (محمد عوف) أو عم (محمد عصر) يجلس عند منتصف الليل جوار النهر ..

إن الجو بارد لذا أعد لنفسه هذا (الخوص) الذي يقيه شر البرد ، و هو هناك جالس يشرب الشاي و يدخن الجوزة .. و يسعل ..

بالنسبة ه ا شيء يهم .. رأى هذه الظاهرة أم لم يرها لا شيء يهم .. القبر لا يبالي إن كانت العظام الراقدة فيه قد رأت عجبا أم لا ، كما لا يبالي إن كان اسم صاحب العظام (محمد عوف) أو (محمد عصر) ..

و الحشيش .. صديقه الدائم .. لقد دخنه قبل أن يرى ما رآه فلم يستوثق منه .. اليوم يدخنه بعد ما رآه فنسي أكثره ..

لكنه سيعرف الكثير بعد دقيقتين .. بعد دقيقة واحدة .. بعد ثوان ..

إن الماء يتحرك بجوار الضفة ..

يخيل إليه أن شيئا يرتفع من هناك ..

الآن يرى بوضوح على ضوء النيران ذلك الشخص الخارج من الماء ، و الذي ابتل شعره و اختلط بالأعشاب ، و انتفخت كملامحه كالغرقى ...

لكنه الوجه ذاته .. لن ينساه أبدا ..

(سليمان) يقف هناك و يمد يده ه .. و بصوت مبحوح خافت لم يستعمله منذ زمن يقول :

- " تعال يا عم (محمد) .. لا تخف .. سأريك شيئا لم تره من قبل ..!"

إن الماء لا يبالي بأسماء الجثث الغارقة فيه ، إن كانت (محمد عوف) أو (محمد عصر) .. كما أن الحشيش جعل جسدك واهنا متراخيا عاجزا عن الفرار أو الصراخ أو حتى إلقاء الأسئلة ..

لا تخف أيها العجوز ..

لا تخف ..

***

بنفسجي ..

لون عيني أختها (ميادة) بنفسجي ..

لا يمكن أن تتصور مدى تباين الآراء حول هاتين العينين .. كأننا نناقش قضية الشرق الأوسط ..إن أباها يؤكد أنهما زرقاوان .. (مراد) حبيبها يقول إنهما كحليتان .. أستاذ (فكري) قال إنهما سوداوان ..

(مها) فقط تؤمن يقينا أن عيني أختها بنفسجيتان ..

الكل يضحك ... الكل يتهمها بالسخف .. الكل يتهما بالهذيان .. لكنها واثقة مما تقول ..

فيما بعد قرأت أن عيني (تشيكوف) الكاتب الروسي العظيم كانتا علامتي استفهام بالنسبة لكل من تعامل معهما .. لم يتفق أحد قط على لونهما .. هذا يعني أن الأمر وارد .. ثمة أعين لا يعرف أحد لونهما يقينا ...

****

لا تذكر متى لاحظت هذه الحقيقة ..

ربما لاحظتها يوم جاء (مراد) لدارها أول مرة .. جلس في الصالون متظاهرا بالأدب يصغي لكلام الأب الذي ينتهي عن مستقبل المنطقة .. من الغريب أن العبقري الذي يفهم كل طلاسم السياسة و الدين و الاقتصاد و القانون و الطب ليس بعيدا .. إنك تقابله في كل مكان تقريبا .. إنه جارك .. إنه صديقك .. إنه أبوك .. إنه أول واحد تلقاه في الشارع لو خرجت الآن ... إذن أين الحمقى في عالمنا ؟ .. إنهم المكلفون رسميا بهذه الأمور ..

كان (مراد) يتظاهر بالإصغاء و يعتصر كأس العصير .. كم تحب هذه البسمة نصف المهذبة نصف الساخرة على شفتيه و التي تراها كثيرا أثناء عمله في الإدارة صباحا ..

لكن الابتسامة تلاشت عندما دخلت (ميادة) .. صافحته و جلست جوار أبيها ، و تلك الرائحة الفواحة تتصاعد منها .. كان وجودها ذاته ملموسا كأنها طيف .. طيف غريب ساحر .. و قد تساءلت (مها) في دهشة عن السبب الذي يجعل أختها تتأنق بهذا الشكل – الذي لم تره قط – لأن عريسا جاء لأختها ..

تلاشت الابتسامة و تظاهر (مراد) بعض الوقت بأنه منهمك لا يلاحظ ، ثم فجأة بدأت عيناه تنزلقان نحو (ميادة) ... هذه النظرة ! .. تعرفها جيدا ! .. لن تنخدع فيها ! ..

الآن صار يتكلم ببطء و يضغط على كل حرف .. أحيانا ينسى ما كان يريد قوله .. و قد خرجت (مها) لشأن ما ، ثم عادت لتضبطه ينظر إلى (مادة) بثبات و إفراط بينما الأب يثرثر بلا انقطاع .. نعم .. هو ينظر لها و إن كان يعطي انطباعا أوليا بأنه ينظر نحو الأب .. تذكرت الشاعر الأحول (أبو العيناء) الذي كتب عن موقف مماثل :

" حمدت الله إذ بلاني بحبها — على حول يغني عن النظر الشذر
نظرت إليها و الرقيب يظنني — نظرت إليه فاسترحت من العذر !!"

هكذا جلست (مها) متعكرة المزاج ، فلو كانت هذه قصة مصورة لخرج الدخان الأسود من رأسها كناية عن الغيظ .. هذه الأفعى قد قررت أن تفسد أجمل ليلة في حياتها حتى هذه اللحظة ..

كانت (ميادة) جالسة و قد أشرق وجهها كالشمس ، و كانت تتابع كل حرف يقوله (مراد) و هي توشك على الانفجار ضحكا أو تؤمن على كلامه كالإماء .. بينما هي – (مها) – جالسة كالضيف الزائد .. لا دور لها على الإطلاق في أي شيء ، و لو جاء زائر من المريخ لقال لك إن (ميادة) و (مراد) حبيبان يجلسان في وجود عاذلين ثقيلي الظل ..

عدها أدركت أن عيني (ميادة) بنفسجيتان ..

****

كان هذا الشيء يتوهج على الأرض بلا انقطاع ..

و انحنت تلتقطه و تتفحصه ..

ربما كان ورقة .. لكنها أقرب إلى رقاقة إلكترونية كالتي تراها في الدوائر المتكاملة .. دوائر كهربية رسمت على دعامة من المعدن .. و كان لها بريق غريب ..

قالت لأختها :
- ***" ربما كان من الحكمة أن نتخلص منها .. سمعت أن هذه الأشياء تنفجر "***

قالت لها و هي تدس الرقاقة في حقيبتها :
- ***" لا أعرف .. ربما كانت مهمة .. أنا لم أتعود التخلص من شيء لا أعرفه "***

****

في الصباح قابلت (مراد) في إدارة حيث كان عاكفا يصلح ثغرة في برنامج الكمبيوتر الذي صممه ..

قالت له في فتور :
- ***" علام اتفقنا ؟ "***

قال و هو يواصل قرع المفاتيح :
- ***" لم نتفق .. كان هذا هو التعارف .. الخطوة الأولى .. الخطوة الثانية هي طلب يدك رسميا في وجود أهلي .."***

ثم حك رأسه في دهشة و سألها :
- ***" غريب .. حسبت أنك تابعت المحادثة كلها .."***

قالت في شيء من السخرية المريرة :
- ***" (ميادة) تابعت كل شيء .."***

هل يتعمد أن يغيظها أم هو فعلا أبله إلى هذا الحد ؟ .. لقد قال في افتتان و قد توقف عن الكتابة :
- ***" أختك هذه ظريفة فعلا ... و الأغرب أن عينيها كحليتان ! .. لم أر في حياتي شخصا له عينان بهذا اللون !"***

كانت تعرف ولع الرجال الوحشي بإثارة غيرة النساء اللاتي يحبونهم .. لذا قررت ألا تحقق له أي انتصار و قالت في برود :
- ***" أنت دقيق الملاحظة .. لم أنظر في عينيها قط في حياتي .. لكنك رأيت هذا و برغم المسافة بينكما .. عبقري فعلا !"***

هز رأسه و واصل الطرق على المفاتيح ..

لكنها كانت في نفسها تقول إنه أحمق .. إن لون عيني (ميادة) بنفسجي ..

يكفي هذا .. هذه لن تكون المرة الأولى التي تظفر فيها (ميادة) بكل شيء .. بتقدير المدرسين و حب الأبوين و هيام المعجبين و تصديق المتشككين .. كل شيء ..

هناك قصة لـ (مارك توين) تحكي عن أخوين أحدهما مهذب متواضع قانع ، و الآخر وغد صاخب مزعج .. لهذا كانوا يعطون الأول أقل القليل من كل شيء (لأنه ملاك) ، بينما الآخر كان يظفر بأفخر الثياب و أغلى الألعاب (لأنه وقح يصعب إرضاؤه) .. الحقيقة أن هذا كان سيناريو حياتها مع (ميادة) تقريبا ..

الأب كان يدلل (ميادة) كثيرا لأنها الأصغر و لأنها تشبه المرحومة أمها .. حتى في لون العينين الأزرق .. و حتى سن العشرين كان يذهب لكليتها ليصحبها في العودة ، بينما (مها) قديرة لا يخشى عليها المرء ، لذا كانت تواجه حتفها على درجات الحافلة كل يوم و تتلقى ألف كوع في وجهها ..

أما حينما تمشي الشقيقتان معا ، فقد كانت (مها) تعرف أين ينظر الجميع و لماذا .. فلولا التهذيب لطلب منه لناس أن تتنحى قليلا كي لا تحجب جمال أختها ..

في تلك اللحظات كانت تدرك أن عيني (ميادة) لونهما بنفسجي ..

****

متى قررت أن (ميادة) لم تعد كما كانت ؟

هذا أيضا من الأمور التي يصعب إعطاء رأي دقيق فيها .. أنت تفاجأ بأن ابنك الطفل البريء رفيع الصوت صار مراهقا خشن الصوت و الوجه ، فلا تستطيع أن تعطي تاريخا محددا حدث فيه هذا .. التغيرات التدريجية تجعل تحديد التاريخ مستحيلا ..

الملاحظة الأولى هي أن عيني (ميادة) ليستا بنفسجيتين دائما .. لا شك في هذا .. من السهل أن تقول إنها كانت واهمة من البداية .. لكن لا .. هي واثقة من حواسها جيدا .. لون عيني (ميادة) صار بنفسجيا ثم لم يعد كذلك ، و لا مجال هنا لكلام عن عدسات لاصقة ..

أحيانا أخرى تنظر لـ (ميادة) فتجد أنها كانت حمقاء .. عينا الفتاة بنفسجيتان بقوة .. و في كل مرة تكلم نفسها عن ألاعيب الضوء .. العين البنية الفاتحة تخضر أحيانا أو تبدو ذهبية في أحيان أخرى ..

لماذا صارت (ميادة) تأكل أقل فأقل ؟ .... هي لم تكن شرهة لكنها لم تكن فراشة قط ..

ثم عادة الكلام أثناء النوم . إن الفتاتين تنامان معا في غرفة صغيرة حميمة هي نموذج لأية غرفة فتيات في مصر ... كانت (ميادة) تنام كالقبر فيما سبق .. بلا أي صوت .. لا شخير .. لا صليل من الأنف .. لا شيء ..

في الفترة الأخيرة هي تتكلم .. أولا تبدأ في الضغط على أسنانها محدثة صريرا .. الصوت الذي يحطم أعصاب (مها) فعلا .. ثم يبدأ الكلام .. لغة لا يمكن فهمها .. تقول أشياء .. أصوات غليظة .. أصوات خشنة .. أصوات خفيضة .. ضحكات خافتة .. ضحكات مائعة ..

ثم ..

هل حدثتك عن موضوع الضوء البنفسجي الذي يغمر الحجرة ؟ .. نعم .. أحيانا تنهض (مها) من نومها مذعورة لتجد أن الغرفة تسبح في ضوء بنفسجي رهيب .. شيء يذكرك بالغروب .. و قبل أن تصرخ أو تحاول الفهم يزول هذا التأثير و تستعيد الحجرة الظلام المحبب السابق .. لقد فسرت الأمر أكثر من مرة بألعاب الضوء .. أثر الظلام على عين كانت نائمة ثم فتحت فجأة .. مثلما تنظر للشمس برهة من ثم تطاردك في كل ركن مظلم من دارك ..

هذا بالطبع لو تغاضينا عن جلسات (ميادة) وحدها في الظلام تقرأ !

نعم .. هذا صحيح .. لقد صحت (مها) أكثر من مرة ليلا لتجد أن (ميادة) تجلس في الظلام الدامس و على حجرها كتاب .. و ذات مرة سألتها عما تفعله بالضبط فقالت (ميادة) في ارتباك :

- ***" لا شيء .. أردت مراجعة نقطة في دروس غد و لم أشأ أن أزعجك !"***

متى اتخذت قرارها ؟

هذا أيضا من الأشياء التي لا يمكن أن نحدد لها تاريخا ..

لقد صحت ذات يوم و قررت أن (ميادة) ليست هي (ميادة) ..

هذا هو التفسير الوحيد والمقبول ..

****

لعل هذا حدث بعد اليوم الذي جرحت فيه (ميادة) نفسها و هي تقطع برتقالة في المطبخ .. و هرعت (مها) مذعورة تحاول أن تساعدها ، لكن هذه ركضت إلى الحوض مرتبكة و راحت تغسل يدها من الدم .. دم ؟ .. لربع ثانية استطاعت (مها) أن ترى السائل المتدفق ، و عرفت في قرارة نفسها أنه ليس دما على الإطلاق .. إن لونه بنفسجي ...

لم تستطع أن تصارح أحدا بخواطرها .. إن الإجابة جاهزة : أنت هستيرية يا عزيزتي .. أما الإجابة الأسوأ فهي : أنت تحقدين على (ميادة) لأنها تفوز بكل شيء و أنت لا ..

هكذا قررت أن تبتلع خواطرها و تصمت ....

لكنها قررت أن تفتش حاجيات (ميادة) جيدا ..

ذهبت (ميادة) إلى كليتها في الصبح ، و كان على (مها) أن تهرع إلى الإدارة لكنها قررت أن تأخذ ساعة تأخير لهذا اليوم ..

وحدها في الغرفة هرعت إلى خزانة الثياب فألقت عليها نظرة خبيرة .. كانت تعرف كل ثوب و كل شيء هنا .. ثم راحت تفتش في صناديق الأوراق التي تخفي فيها (ميادة) (كنوزها) منذ الصبا .. قوقعة غريبة الشكل .. وردة مجففة .. بطاقة معايدة عليها قط جميل .. الخ ..

لا شيء ..

ثم هرعت إلى المكتب ففتحته و راحت تنقب ..

لحظة .. هذا هو الكتاب الذي وجدته أكثر من ليلة بين يدي (ميادة) .. لا يوجد كتاب آخر بهذا الحجم و هذا القطع .. مدت يدها تفتش بين أوراقه فلم تر إلا كتابا دراسيا مملا يشرح هندسة الاتصالات ..

لكنها في نهايته وجدت شيئا .. تلك الرقاقة التي وجدتها في قريتهما ...

****

- ***" ما هذا الضوء الذي توهج للحظة واحدة خلف الشجرة ؟"***
- ***" لا أعرف يا (مها) .."***
- ***" إذن تعاي نقترب .."***
- ***" يخيل إلي أنه شيء هبط من السماء .. هل تعرفين كيف تهبط تلك القنابل و تنفجر في السينما ؟ .. أخشى أنه لغم .."***
- ***" كلام فارغ .. هل ترين شيئا ؟ "***
- ***" لا .. لكن لحظة .. هذه الرقاقة البراقة .. لا أعرف سبب وجودها في قرية كهذه .. وسط روث الماشية .. هذه هي الشيء الذي هبط من السماء .."***

****

إن الرقاقة الآن في راحتها ..

لا يوجد ما ينفي أن تكون هي الشيء الذي تسهر (ميادة) تتأمله ليلا ..

تسربت حرارة جسدها إلى الرقاقة فراحت تسخن .. و تسخن .. ببطء و لكن بشكل مؤكد .. إنها تتوهج بذلك الضوء البنفسجي الغريب الذي كانت تراه في الغرفة ليلا ...

انتابها الهلع فقذفت بالرقاقة لتسقط على الفراش ، ثم ابتلعت ريقها و راحت تلهث ..

هذه الرقاقة لعنة .. لا شك في هذا .. و هذه اللعنة قد مست (ميادة) فجعلتها تتغير .. لكن .. لعنة ؟ ..

لعنة ؟

غريبة هي تلك اللعنات التكنولوجية التي تشبه الدوائر المتكاملة ..

ثم خطر لها شيء آخر ..

(ميادة) هي التي أسرعت أولا لترى ما سقط خلف الشجرة .. هي رأت أفلاما كثيرة لخيال العلمي ، و رأت عشرات القصص التي يتم فيها الاستبدال في لحظة .. فجأة لم تعد (ميادة) هنالك .. إما أنها صارت قشرة تضم ذلك الشيء الذي جاء من أجواء الفضاء ، و إما أنها تلاشت و هو حل مكانها .. ثم خرج من وراء الشجرة ليقول : *" لا .. لكن لحظة .. هذه الرقاقة البراقة .. لا أعـ ... "* .. الخ ..

و في هذه الحالة لا بد أن الرقاقة كانت هي سفينة فضاء ذلك الكائن ، أو لعلها جهاز اتصال خاص به قادر على نقل كيانه إلى التعس الذي يمسك بها ..

هل هذا معقول ؟

غير معقول .. لكن ما يحدث لـ (ميادة) غير معقول كذلك .. أنت تحتاج لأكثر التفسيرات سخفا كي تفسر أكثر الظواهر غرابة ..

ماذا تفعل ؟ .. لا تستطيع أن تقتل (ميادة) ببساطة لأن (كائنا فضائيا يسكن فيها) .. لكن هناك حلا أقرب إلى المنطق و لسوف تنفذه هذه الليلة ...

****

كنت أنا الطبيب النفسي الذي تولى علاج (مها) ..

قلت للأب و الأخت (ميادة) و أنا أخط آخر ملاحظاتي في دفتري :

- ***" القصة بسيطة جدا و نسمعها مئات المرات .. إن شعوره بالظلم و بأنها لا تنال ما تستحق أدى بعقلها الهش إلى جنون اضطهاد كامل .. هكذا ولدت هذه القصة عن أختها التي لست أختها .. ثم هذا المشهد الدرامي الأخير .."***

قال الأب و هو يرتجف :

- ***" هل تسمح لي بالتدخين ؟ "***

هززت رأسي في ضيق أن نعم ، فأشعل لفافة تبغ بيد راجفة و قال :

- ***" لا أتصور ما حدث .. أصحو في الرابعة صباحا أصلي الفجر فأجد (مها) واقفة في المطبخ تحاول حرق تلك الدائرة التي تحتفظ بها أختها أسباب دراسية .. و حينما حاولت منعها راحت تصرخ في***

هستيريا .. تقو إن (ميادة) ليست (ميادة) و إنما قشرة يتخفى فيها كائن فضائي .. لقد جاء الجيران و احتجنا إلى تقييدها لنحملها إلى المستشفى .. لكنها لم تكف عن الصراخ لحظة .."

قلت و أنا أكتم أنفاس تفاديا لكل هذا الدخان :

- *" كل هذا يحدث كثيرا جدا .. فقط كل إنسان يعتبر حالته فريدة .."*

سألني في لهفة :

- *" هل أنا السبب ؟ .. هل تعتقد أنني فرقت في المعاملة بينهما حقا ؟"*

قلت في برود :

- *" يصعب علي أن أحكم ما دمت لم أر .. لكن الإحصاءات تؤكد أن هذا هو الحال لدى ٨٠ % من الآباء .. لسبب ما يظفر أحد الأخوة بكل شيء .. و هذا يوقع الآخرين في مصيدة الاحتياج للحب و انعدام الثقة بالنفس أبدا .. أنا أؤمن أن كل مرض نفسي جاء من خطأ تربوي أو خلل وراثي .. لكن أرجو ألا يكون أوان العلاج قد فات .."*

تأهب للنهوض قلت له :

- *" سوف تبقى هي في المصحة كما اتفقنا و إن كنت أفضل أن تبقى أختها معها .. هذا مهم للعلاج .."*

هز رأسه موافقا .. كان بوسعه الآن أن يوافق على أي شيء .. إن الإحساس بالذنب هذا ...

مرت دقائق بعد انصرافه ، و (ميادة) تجلس أمامي صامتة تعبث ببقايا التبغ التي كان أبوها يدخنها .. بعد قليل نهضت فأغلقت الباب و أضاءت النور البنفسجي المريح للعين لأنه يذكرنا بوطننا ..

قالت لي :

- *" سوهاك .. إياهواه شيبلا تنمو كوانهار شيفن كاه .."*

فقلت لها في حزم :

- *" سوف نتكلم العربية .. كفاك ما اقترفت من أخطاء حتى هذه اللحظة .."*

ثم سمحت للون البنفسجي أن يتألق في عيني و قلت لها :

- *" كنت سريعة الخاطر عندما اقترحت اسمي لأعالج (مها) .. إنها الآن في قبضتنا و لن تفر ، و مهما تكلمت لن يصدقها أحد .. لكنك كنت بلهاء عندما سمحت لعينيك بأن تتألقا باللون البنفسجي .. حمقاء عندما رحت تخاطبيني عبر الشريحة في الظلام .. لقد كشفت عن أشياء كثيرة جدا .."*

بدا عليها الحرج في الضوء البنفسجي المريح للعينين ، فقلت لها :

- *" قد تم تحولنا منذ شهرين .. هناك خمسة منا الآن في مصر ، و عشرون في الولايات المتحدة ، و خمسة في فرنسا ، و أربعة في اليابان .. يجب أن نظل في دائرة الظل إلى أن يزداد عددنا أكثر فأكثر و عندها نضرب ضربتنا .. ليس قبل ذلك .. صدقيني "*

***

تـــمــــت

مــع تــحـيـات..

Drfiras007